

أخلاقهم وأخلاقنا

وجهتا النظر الماركسية والليبرالية في المثل الأخلاقية

ليون تروتسكي

جون ديوي

جورج نوفاك

ترجمة

سمير عبده

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

النسخ الالكتروني : جريدة المناضل-ة

www.almounadil-a.info

الفهرس

- 1- مقدمة استهلاكية- جورج نوفاك
- 2- المقدمة- جورج نوفاك
- 3- أخلاقهم وأخلاقنا- ليون تروتسكي
- 4- الخلقيون والمنافقون ضد الماركسية- ليون تروتسكي
- 5- الوسائل والغايات- جون ديوي

6- الأخلاق الليبرالية- جورج نوفاك

ثبت بالمصطلحات الرئيسية المستعملة في الكتاب

مقدمة استهلاكية

جورج نوفاك

لا يشغل بال الراديكاليين الجدد لفترة الستينات من المسائل، قدر ما تشغلهم مسألة العلاقة بين الأخلاق والسياسة. ترى هل يمكن لهذين الوجهين من الفعالية الإنسانية أن ينسقا، أو أن من المحتم عليهما أن يظل كل منهما معاديا للآخر؟ إن سجل الستالينية الشائن وخضوع الاشتراكيين الإصلاحيين لسياسة الحرب الباردة في واشنطن، قد أدت بكثير من الثوريين الشبان إلى الاعتقاد بأن النظرية الماركسية عاجزة عن حل هذه المعضلة. ولذلك فهم يبحثون في ميادين أخرى أملا في العثور على جواب لهذه المشكلة المكدررة في النزعة السلمية والوجودية والأخلاقية المحضة والفعالية دون إيديولوجية أو منهاج، لا بل حتى بالارتداد إلى الإيمان الديني.

إن الصراع بين الأخلاق والسياسة ليس بالمشكلة الجديدة على الإطلاق. ففي عصرنا الراهن جرى النقاش حولها بضراوة حيثما كان، وفي الوقت الذي جوبه فيه الناس بمهام عاجلة تتعلق بالثورة السياسية وإعادة البناء الاجتماعي. وقد كان الجدل حول المسألة في غاية الحدة، في النصف الأخير من فترة الثلاثينات. وبإمكان الجيل الجديد أن يتعلم الكثير من المناقشات التي جرت بين الليبراليين والإصلاحيين والثوريين في تلك الفترة.

إن بإمكانهم العثور على قضايا أساسية تتعلق بالمجابهة بين الليبرالية والستالينية والماركسية فيما يختص بالأخلاق والسياسة، وهي قضايا طرحت بإسهاب في هذه المقالات.

وهي تنشر في هذا الشكل في وقت مناسب جدا. فشهد آب/أغسطس من عام 1966 يصادف العيد الثلاثين لمحاكمات

موسكو الأولى المشينة التي جرت في الفترة الواقعة بين عام 1936 و1938. كما يصادف هذا التاريخ الذكرى السادسة والعشرين لاغتيال تروتسكي في ميكسيكو عام 1940. إن هاتين الحادثتين متصلتان مباشرة. فاغتيال تروتسكي من قبل أحد عملاء ستالين، مثل تنفيذ حكم الإعدام الذي حكم به على الثوري المنفي في محاكمات موسكو.

إن تدهور الثورة الروسية في ظل الحكم التوتاليتاري للبيروقراطية السوفيتية قد تجلى بأشد صورة دراماتيكية بإدانة وإعدام جميع أعضاء مكتب لينين السياسي، باستثناء ستالين نفسه. ولم تثر المحاكمات وعمليات التطهير الدموية التي تناولت ملايين الناس، الفزع فحسب، بل أثارت لدى العديد من الأوساط الشكوك حول المؤهلات الأخلاقية للماركسية والبلشفية.

وقد قامت جماعة كبرى تضم عددا من الراديكاليين والشيوعيين السابقين بإدانة الماركسية الثورية مع نقيضها ومخربتها الستالينية، باسم المبادئ الأخلاقية العالمية. ومن أبرز هؤلاء في الولايات المتحدة ماكس ايستمان ويوجين ليونز، وسيدني هوك ونورمان توماس.

وبالإضافة إلى الدفاع عن شرفه وحياته كثوري ضد اتهامات موسكو الباطلة، اضطر تروتسكي إلى الدفاع عن مراكز الماركسية المحصنة، وتبريرها في المسائل التي تتعلق بالأخلاق ضد هجمات هؤلاء الخصوم.

وقد فعل ذلك في مقاله الشهير: أخلاقهم وأخلاقنا، الذي نشره في مطلع مجموع المقالات هذه. وقد ظهر هذا المقال لأول مرة بالانكليزية في نشرة الأهمية الجديدة New International عدد شباط/فبراير 1938، وهذه المعالجة لمشكلة الغاية والوسيلة في العمل الجماعي والسلوك الفردي، تعتبر من أثنى إسهامات تروتسكي في النظرة الماركسية. وقد كرست في ذكرى ليون سيدوف، ولده البالغ 32 عاما، والذي توفي بأحد مستشفيات باريس في ظروف غامضة، بينما كان تروتسكي يكتب هذا الكراس. وثمة دلائل مقنعة للاعتقاد بأنه، مثله مثل آلاف أتباع تروتسكي في ذلك الوقت، قتل بناء على أوامر بوليس ستالين السري.

وبعد عام ونصف عاد تروتسكي إلى الموضوعات نفسها عندما أجاب على ناقديه بمقال تحت عنوان: الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية. إن هذين المقالين يشكلان وحدة في الواقع.

وقد كتب المفكر والمربي الأمريكي الشهير جون ديوي (1) بعد قراءة مقال تروتسكي الأصلي، تحليلاً نقدياً لآرائه من وجهة نظر فلسفته الوسيطة instrumentalist. وفي شهر آب/أغسطس عام 1938 نشر مقاله (الوسائل والغايات) في النيو انترناشيونال.

هذا وقد قام ديوي بمهمة رئيس لجنة التحقيق الدولية في محاكمات موسكو، وهي اللجنة التي اتجهت إلى مكسيكو في نيسان من عام 1937 لكي تأخذ شهادة تروتسكي، حول الاتهامات التي وجهت ضده وضد سيدوف في محاكمات موسكو. وفي تشرين الأول من العام نفسه قدمت اللجنة مطالعتها القائلة بأن محاكمات ستالين كانت ملفقة، وأن تروتسكي وابنه كانا بريئين كلياً من الجرائم المريعة التي نسبت إليهما في الاتهامات والاعترافات التي انتزعت بالقوة.

ومنذ خطبة خروتشوف السرية الشهيرة حول جرائم ستالين في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في شباط/فبراير من عام 1956، دلل خلفاء ستالين بطريقتهم الخاصة على صحة مطالعات لجنة ديوي قبل عشرين عاماً. وباستثناء بعض المتعصبين الستالينيين، يقبل المطلعون على السياسة داخل وخارج الحركة الشيوعية في العالم، يقبلون الآن في الحقيقة القائلة إن محاكمات موسكو كانت تزييفاً للعدالة وإنها لوثت قضية الاشتراكية بالدم.

وقد توقع ديوي أن يتلقى جواباً على تحديه من تروتسكي، غير أن هذا المنفي المعذب لم يستطع أن يستأنف المناقشة في الوقت القصير الذي سبق مصرعه.

ونظراً لأن المناظرة بين الطرفين لم تتم، قمت في الذكرى الخامسة والعشرين لاغتيال تروتسكي، بمراجعة مختلف جوانب الحوار حول هذه المسألة بين مختلف مدارس الفكر المتصارعة. وقد نشر مقال (الأخلاق الليبرالية) الذي نختتم به مجموعة المقالات هذه، في خريف عام 1965، في

الانترناشيونال سوشاليست ريفيو International Socialist Review. إن هذه المقالات الأربعة ستساعد على إيضاح الوسائل المختلفة والآراء المستخدمة من قبل الليبرالية والماركسية في معالجة مستويات الأخلاق، وبخاصة في تطبيقها على مشكلات العمل السياسي والتغير الاجتماعي الذي يبدي الراديكاليون الجدد وآخرون غيرهم اهتماما بها في هذه الأيام.

آب/أغسطس سنة 1966

(1) يعتبر جون ديوي (1859-1952) الفيلسوف الأمريكي من الفلاسفة القلائل الذي كان لهم تأثير كبير في الشؤون العملية. إنه يميل إلى أن يستبدل بالسؤال القائل (ما هي النتيجة الصادقة؟) سؤالا آخر يقول (ما هي النتيجة التي (ينبغي)- إذا وضعنا في اعتبارنا ظروف المشكلة التي كانت مثارا لتفكيرنا على الإطلاق- أن ننتهي إليها؟). مشكلة القيمة إذن هي موضع اهتمامه الرئيسي في كل ما كتب، وليس مما يثير الدهشة أن فلسفته قد انتهت به إلى أفكار ثورية بصدد العملية التربوية، فقد كان البرنامج الذي وضعه ديوي للتربية التقدمية نتيجة طبيعة لفلسفته ككل. (المترجم).

في ذكرى ليون سيدوف

1938-1906

المقدمة

جورج نوفاك

خلال الأعوام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت طائفة جديدة من نقاد الماركسية الثورية، انطلقت من منطلق الأخلاقية. ويمثل هؤلاء ماكس ايستمان ونورمان توماس ويوجين ليونز وسيدني هوك في الولايات المتحدة، وبوريس سوفارين ومارسيو بيفر في فرنسا. وقد تضخمت هذه الجوقة بانضمام مجموعة ذي نيشن The Nation والـ New Republic التي بعد أن سحبت دعمها وتأييدها لجرائم الستالينية ومحاكمات واسبانيا، ما لبثت أن انتقلت إلى القول

بأن الستالينية وبلشفية لينين وتروتسكي متساوية في لا أخلاقيتها. هذه الأصوات كانت لفترة من الزمن عونا لنقد الثورة الاجتماعية باسم (الأخلاقية العالمية).

وقد تعرض تروتسكي لهؤلاء في مقاله: أخلاقهم وأخلاقنا، الذي نشر في أمريكا في عام 1938 بمجلة نيو انترناشيونال (الأممية الجديدة) وفي فرنسا بكراس مستقل. وبعد مضي عام ونصف كتب تروتسكي مقاله: الأخلاقيون والمنافقون ضد الماركسية، اعتبره تنمة لمقاله الأصلي، وعلى ذلك فما نحن ننشر المقالين معا في ترجمة مراجعة.

لقد أثبت التاريخ أن رأي تروتسكي في أن محاولة الأخلاقيين (تحسين) الماركسية بوضع كوابح أخلاقية على جميع الطبقات، كانت في الواقع خطوة من قبلهم نحو معسكر الطبقة الرأسمالية. وقد تحول جميع الأخلاقيين منذ ذلك الوقت، دون استثناء تقريبا، إلى مؤيدين للامبريالية الديمقراطية بعد أن أعاد الكثيرون منهم النظر في فكرتهم التي تقوم على اعتبار الستالينية والتروتسكية توأمين، وذلك في صالح فكرة ستالين ديموقراطي. إن نقدهم (الأخلاقي) للبلشفية قد أصبح كما هو الأمر بالنسبة لنقد ايستمان وهوك (الفلسفي) للدياليكتيك الماركسي، جسرا عبروا فوقه عاندين إلى معسكر الامبريالية. وإن أخلاقيتهم متعفنة حتى النخاع.

إن هذا الكراس الذي كتب في معرض المحاوره، هو دون ريب أحد إسهاماته الخالدة في الماركسية. إنه أول عرض منهجي لفكرة الماركسية في العلاقة بين الغايات والوسائل كعلاقة داخلية دياليكتيكية. ومن الواجب أن يضع حدا، بالقدر الذي يدكه الطلبة الشرفاء، لأسطورة (لا أخلاقية) البلشفية والادعاءات الأخلاقية لدى نقادها من البرجوازيين الصغار.

أخلاقهم وأخلاقنا

ليون تروتسكي (1)

الأخلاق الطوباوية

خلال حقبة من رد الفعل الظافر، بدأ السادة الديمقراطيون والديمقراطيون الاشتراكيون والفوضويون وممثلون آخرون

عن (المعسكر اليساري)، بإفراز ضعف كميتهم المعتادة من الأخلاق الطوباوية، أشبه شيء بأشخاص يتعرقون في حالة الخوف ضعف ما يتعرقونه عادة. ولا يخاطب هؤلاء الأخلاقيون وكأنهم يشرحون الوصايا العشر أو موعظة الجبل إلى الرجعية المنتصرة، قدر ما يخاطبون أولئك الثوريين الذين يعانون من اضطهادها، والذين يثيرون الرجعية ويعطونها تبريرها الخلقى، (بتطرفهم) وبمبادئهم (اللاأخلاقية). وأكثر من ذلك، فإنهم يصفون وسيلة بسيطة ولكنها مضمونة لتجنب الرجعية: إن من الضروري أن يناضل المرء وأن يجدد نفسه خلقيا. وهناك عينات مجانية للكمال الخلقى تقدمه جميع مكاتب النشر المعنية لهؤلاء الراغبين.

إن الأساس الطبقي لهذه الموعظة الفخمة والزائفة، هو البرجوازية الصغيرة المثقفة، والأساس السياسي هو عجزهم واضطرابهم في وجه الرجعية المتقدمة.

وأما الأساسي السيكولوجي فيمكن في محاولتهم التغلب على الشعور بالنقص لديهم عن طريق الاختفاء وراء لحية نبي.

ولعل الطريقة المفضلة لدى جاهل أخلاقي هي الخلط بين سلوك الرجعية والثورة. إنه يتجح في حيلته هذه عن طريق العودة إلى المطابقات الشكلية، فالقيصرية والبلشفية توأمان بالنسبة له، والتوأمية هذه يكتشفها أيضا في الفاشية والشيوعية. وقد ابتدع اختلاق آخر حول الصفات المشتركة بين الكاثوليكية، أو بشكل أدق اليسوعية وبين البلشفية. ويعلن هتلر وموسيليني باستخدام الوسيلة نفسها بالضبط. إن الليبرالية والديمقراطية والبلشفية تمثل أشكالا مختلفة لشر واحد. والرأي القائل بأن الستالينية والتروتسكية واحدان من حيث الجوهر، يتمتع بالموافقة الجماعية لكل من الليبراليين الديمقراطيين والكاثوليك المؤمنين والمثاليين والذرائعيين والفوضويين والفاشييين. وإذا ما كان الستالينيون عاجزين عن الانتساب للجبهة الشعبية هذه، فإن الأمر يعود فقط لكونهم مشغولين بالقضاء على التروتسكيين.

إن الصفة الأساسية لهذه المقاربات والمشابهاة، تكمن في تجاهلها الكلي للأساس المادي للتيارات المختلفة، أي لطبيعتها الطباقية، وكذلك أيضا لدورها التاريخي الموضوعي. وبدلا

من ذلك يقوّمون ويصنّفون التيارات المختلفة حسب بعض المظاهر الثانوية والخارجية، وفي كثير من الأحوال حسب علاقتها بمبدأ تجريدي معين، أو بمبدأ آخر، مبدأ يحمل للمصنّف قيمة مهنية خاصة. وعلى ذلك، فبالنسبة لبابا روما، يبدو الماسونيون والدارونيون والماركسيون والفوضويون سواء، لأن جميعهم ينكرون إنكاراً شديداً حمل العذراء. وأما بالنسبة لهتلر فالليبرالية والماركسية توأمان لأنهما يتجاهلان (الدم والشرف)، وأما الديمقراطية، فإن الفاشية والبلشفية توأمان لأنهما لا تحترمان معاناة وآلام العالم. لا يخضعنا للتصويت العام.

ولا شك أن التيارات التي سبق جمعها لها صفات مشتركة معينة، إلا أن أساس المشكلة يكمن في حقيقة أن تطور الجنس البشري لا يستنفد بالشقاء العالمي، أو (بالدم والشرف) أو بعقيدة (الحبل بلا دنس). إن العملية التاريخية تمثل قبل كل شيء صراع الطبقات. وأكثر من ذلك، فإن الطبقات المختلفة قد تلجأ، في مناسبات معينة، إلى استخدام وسائل متشابهة باسم اختلاف الأهداف. ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك من حيث الجوهر، فالجيوش في المعارك تكون متماثلة بشكل أو بآخر. ولو لم يكن هناك شيء مشترك في وسائل الصراع بينها لما استطاع واحدها تسديد ضربات للآخر.

وإذا ما وجد فلاح جاهل أو صاحب حانوت نفسه بين نارين، وهو لا يدرك أصل أو معنى الصراع بين البروليتارية والبورجوازية، فسينظر إلى المعسكرين المتخاصمين بكرامية متساوية. ومن ترى هؤلاء الأخلاقيون الديمقراطيون؟ إنهم إيديولوجيو الطبقات الوسطى الذين سقطوا، أو الذين هم فريسة للخوف من الوقوع بين النارين. والصفات الأساسية التي تميز الأنبياء من هذا الطراز، هي الانعزال عن الحركات التاريخية الكبرى، ووجود عقلية شديدة المحافظة، وضيق أفق، ولون من أشد ألوان الجبن السياسي بدائية. إن الأخلاقيين يأملون أكثر من أي شيء آخر أن يتركهم التاريخ بسلام مع كتبهم ومجلاتهم الصغيرة ونشراتهم وحسبهم المشترك ودفاترهم الأخلاقية. إلا أن التاريخ لا يتركهم بسلام فهو يصفعهم تارة من اليسار وطورا من اليمين. ومن الواضح أن الثورة والرجعية، القيصرية والبلشفية، الشيوعية والفاشية، الستالينية والتروتسكانية كلها توائم. ومن يشك بذلك فقد يشعر

بضربات متماثلة على يافوخ طرفي اليمين واليسار لدى هؤلاء الأخلاقيين.

اللاأخلاقية (2) الماركسية والحقائق الخالدة

إن أشد الاتهامات الموجهة ضد اللاأخلاقية البلشفية شيوعا وثقلا، تستند على ما يسمى بالقاعدة اليسوعية للبلشفية: (الغاية تبرر الوسيلة). ومن هنا ليس من الصعب الوصول إلى النتيجة التالية: ما دام التروتسكيون مثلهم بذلك مثل البلاشفة (أو الماركسيين) لا يعترفون بمبادئ الأخلاق، فليس هناك بالنتيجة فرق أساسي بين التروتسكية والستالينية.

لقد أجرت مجلة شهرية أمريكية في غاية السوقية والتهكم استفاء حول الفلسفة الأخلاقية للبلشفية، وكان الاستفتاء معدا كالعادة لكي يخدم غايات الأخلاق والإعلان في وقت واحد. ولم يكن هـ.جـ. ولز الذي لا يقلد، والذي تفوق قناعاته الذاتية الهومرية خياله، يتلكأ عن التضامن مع المتطرفين الرجعيين المؤمنين بالحس المشترك Common Sense وهنا يصبح كل شيء منتظما، بيد أن أولئك المعنيين الذين اعتبروا من الضروري الدفاع عن البلشفية، لم يفعلوا ذلك في معظم الحالات، دون بعض المراوغات التي تنضح بالتملص والتهرب (ايستمان): إن مبادئ الماركسية سيئة بالطبع، إلا أن بين البلاشفة، على أية حال، بعض الأشخاص الذين يستحقون التقدير. إن مثل هؤلاء (الأصدقاء) هم في الحق اشد خطرا من الأعداء.

إذا ما نظرنا إلى هؤلاء السادة المهتمين بجدية، علينا أن نسألهم قبل كل شيء: ما هي مبادئكم الخلقية؟ ذلكم سؤال بالكاد أن نسمع له جوابا. دعونا نعترف الآن إنه لا الغايات الشخصية ولا الغايات الاجتماعية يمكنها أنة تبرر الوسيلة. هنا يتضح أنه من الضروري البحث عن مقياس خارج المجتمع التاريخي، وخارج تلك الغايات التي تظهر خلال تطورها، ولكن أين؟ إذا لم يكن على الأرض فلا بد إذن أن يكون في السماء. لقد اكتشف الكهنة قبل زمن طويل، اكتشفوا في الوحي الإلهي مقياسا خلقيا معصوما، ويتحدث الكهنة العلمانيون الصغار عن الحقائق الخلقية الخالدة دون أن يسموا مصادرها الأصلية. ومع ذلك فنحن محقون في استنتاجنا التالي: بما أن هذه الحقائق خالدة، وجب أن توجد، ليس قبل

ظهور الإنسان الذي نصفه الآخر إنسان على الأرض فحسب، وإنما قبل تطور النظام الشمسي. فمن أين ظهرت إذن؟ إن نظرية القيم الأخلاقية الخالدة لا يمكن أن تستمر مطلقاً دون الله.

إن الأخلاقيين من النوع الانغلو ساكسوني، يبدوون طالما أنهم لا يقصرون أنفسهم على النفعية العقلانية وعلى الأخلاق البورجوازية، يبدوون بوعي منهم أو بعدم وعي تلاميذ للفيزكونت شافتسبوري Viscount Shaftesbury الذي استنتج في بداية القرن الثامن (!) أحكاماً خلقية من (حس خلقي) خاص افترض أنه منح للإنسان مرة واحدة وإلى الأبد. إن فوق الطبقة تؤدي بشكل حتمي إلى الاعتراف بمضمون خاص (بمس خلقي)، بضمير بنوع من المطلق الذي لا يعدو كونه الاسم الفلسفي الواجب لله. وبمعزل عن الغايات، أي بمعزل عن المجتمع والأخلاق وسواء استنتجت من الحقائق الخالدة، أو من (طبيعة الإنسان) يبدو الأمر في النهاية شكلاً من أشكال (اللاهوت الطبيعي). وتظل السماء المركز المحصن الوحيد للعمليات العسكرية ضد المادية الديالكتيكية.

وفي نهاية القرن الماضي، ظهرت في روسيا مدرسة كاملة للماركسيين ضمت كلا من ستروف وبردييف وبلفاكوف وآخرين من الذين أرادوا إغناء تعاليم وماركس بأساس ذاتي، أي بأساس خلقي يجاوز فوق الطبيعة. وقد بدأ هؤلاء بكنط Kant والأمر المطلق. ولكن كيف انتهوا؟ إن ستروف هو الآن وزير متقاعد رانغل القرمي وابن بار للكنيسة، وبلفاكوف كاهن ارثوذكسي، وبردييف يشرح (الرؤيا) بلغات متنوعة. إن هذه التحولات التي تبدو غير متوقعة للوهلة الأولى، لا تفسرها إطلاقاً (الروح السلافية) -لدى ستروف روح ألمانية- وإنما تفسر بمد الصراع الاجتماعي في روسيا. إن التيار الأساسي لهذه التبدلات دولي جوهرياً.

وتمثل المثالية الفلسفية الكلاسيكية من حيث كونها قد استهدفت في زمانها علمنة الأخلاق، أي تحريرها من القيود الدينية، تمثل خطوة هائلة إلى الأمام (هيغل) إلا الفلسفة الخلقية وقد انشقت عن السماء، واضطرت للبحث عن جذور أرضية. وقد كانت إحدى مهام المادية اكتشاف هذه الجذور، فبعد شافتسبوري جاء داروين وبعد هيغل جاء ماركس. فالإتجاه الآن نحو (الحقائق الأخلاقية الخالدة) يمثل محاولة لإعادة

العجلات إلى الوراثة. إن المثالية الفلسفية مجرد مرحلة: من الدين إلى المادية، أو بالعكس من المادية إلى الدين.

الغاية تبرر الوسيلة

إن النظام اليسوعي الذي تبلور في النصف الأول من القرن السادس عشر لمحاربة البروتستانتية، لم يبشر مطلقاً بفكرة أن أية وسيلة، حتى ولو كانت إجرامية من وجهة نظر القيم الأخلاقية الكاثوليكية، مسوغة في حال كونها تؤدي إلى لغاية المتوخاة أي إلى انتصار الكاثوليكية. إن مبدأً متناقضاً من الداخل، وغير ذي دلالة سيكولوجياً كهذا، كان ينسب إلى اليسوعيين بخبث، من قبل خصومهم البروتستانت وبعض الخصوم الكاثوليك، الذين لم يتورعوا عن اختيار عن اختيار الوسائل لتحقيق غاياتهم الخاصة. وقد علم اللاهوتيون اليسوعيون الذين كانوا مشغولين، مثلهم في ذلك مثل لاهوتيين المدارس الأخرى بمسألة المسؤولية الشخصية، علموا في الواقع أن الوسيلة في حد ذاتها يمكن أن تكون أمراً لا أهمية له، ولكن تبرير الوسيلة المعنوية خلقياً أو إدانتها ينطلق من الغاية. فإطلاق النار مسألة لا أهمية في حد ذاتها، أما إطلاق النار على كلب مسعور يهدد طفلاً فهذه فضيلة، وأما إطلاق النار بهدف الاعتداء أو القتل فجريمة. وخارج هذه المجالات العامة لم يبد لاهوتيو هذا النظام أية آراء.

ولم يكن اليسوعيون في المدى الذي يتعلق بأخلاقيتهم العملية، أسوأ من الرهبان الآخرين أو الكهنة الكاثوليك على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، فقد كانوا متفوقين عليهم، وحيث كانوا على أية حال أشد ثباتاً وجرأة وتبصراً. وقد كان اليسوعيون يمثلون منظمة مناضلة شديدة المركزية، عدوانية وخطرة، ليس تجاه الأعداء فحسب، وإنما تجاه الحلفاء أيضاً. وبهذه السيكولوجية وطريقة العمل، ميز يسوعي تلك الفترة (البطولية) نفسه عن الكاهن العادي كمحارب من أجل الكنيسة، لا صاحب حانوتها. وليس من سبب يجعلنا ننظر إلى أي منهما على أنه مثالي، بيد أنه ليس بذي قيمة إطلاقاً النظر إلى محارب متعصب بعيني صاحب حانوت كسول وخامل.

إذا ما ظللنا في مجال الممثلات الشكلية أو السيكولوجية البحتة أمكن القول، إذا ما شئتم، أن البلاشفة يبدون بالنسبة للديمقراطيين الاشتراكيين بكافة أشكالهم، كما يبدو اليسوعيون

بالنسبة للسلك الكنسي المسالم. وبالمقارنة مع الماركسيين الثوريين، يبدو الديمقراطيون الاشتراكيون والمركزيون أشبه شيء بالمعتوهين، أو أشبه شيء بدجال أمام طبيب: فهم يفكرون بمسألة ما حتى النهاية، ويؤمنون بقوة السحر والشعوذة، ويعجبون بجبن كل صعوبة، أملين بحدوث معجزة. وأما الانتهازيون فهم في الفكر الاشتراكي، أصحاب حوانيت مسالمون، بينما البلاشفة محاربوه الأشداء. من هنا تنشأ العداوة والكراهية للبلاشفة من جانب أولئك الذين لديهم فيض من الأخطاء التاريخية المشروطة، وليس فيضاً في أية حسنة من الحسنات.

ومع ذلك يظل تناظر البلاشفية واليسوعية وحيد الجانب، وسطحياً كلياً، لا بل أنه من نوع أدبي أكثر من كونه من نوع تاريخي. ووفقاً لطبيعة مصالح هذه الطبقات التي بنوا أنفسهم عليها، يمثل اليسوعيون الرجعية ويمثل البروتستانتيون التقدم. إن محدودية هذا التقدم تجد تعبيرها المباشر بدورها في أخلاقية البروتستانتيين، ومن هنا فتعاليم المسيح التي قاموا بتنقيتها، لم تمنع لوثر برجوازي المدينة من الدعوة إلى القضاء على الفلاحين الثائرين ووصفهم بالكلاب المسعورة. ومن الواضح أن الدكتور مارتن اعتبر أن الغاية تبرر الوسيلة حتى قبل أن ينسب هذا المبدأ إلى اليسوعيين. وبالمقابل قام اليسوعيون في منافستهم مع البروتستانتية بالتأقلم أكثر من قبل مع روح المجتمع البرجوازي وروح العهود الثلاثة: الفقر والعفة والطاعة، وحافظوا على الطاعة فقط وبشكل بالغ المرونة. ومن جهة نظر المثل الأعلى المسيحي، انحدرت أخلاقية اليسوعيين بقدر ما كفوا عن كونهم يسوعيين. وقد أصبح المجاهدون في سبيل الكنيسة بيروقراطيي اليسوعية، وأصبحوا مثلهم في ذلك مثل جميع البيروقراطيين دجاجلة ناجحين.

اليسوعية والنفعية

إن هذه المراجعة المختصرة ربما كانت كافية لتوضح أن الجهل وضيق الأفق ضروريان للنظر بجدية إلى المركز المعاكس للمبدأ اليسوعي (الغاية تبرر الوسيلة)، إلى المحكمة الأسمى، والقائلة بأن كل وسيلة تحمل عنوانها الأخلاقي الخاص بها كالبضاعة التي تحمل سعرها المحدد في مخزن تجاري. ومن الملاحظ أن الحس المشترك لدى

الانغلو ساكسوني الجاهل والمتعصب قد توصل إلى حالة من السخط على المبدأ اليسوعي، وإن يجد الإسهام في الوقت نفسه، في الأخلاقية النفعية التي تتميز بها الفلسفة البريطانية. ومن هنا فإن مقياس بنتام -جون مل القائل (أعظم سعادة ممكنة لأكبر عدد ممكن من الناس) تعني أن هذه الوسائل الأخلاقية تؤدي إلى تعميم الرفاهية واعتبارها الهدف الأسمى. وعلى ذلك فإن المذهب النفعي الانغلو ساكسوني في أشكاله العامة يتفق كلياً مع المبدأ اليسوعي: (الغاية تبرر الوسيلة). فالمذهب التجريبي، كما نرى، يوجد في العالم فقط لتحريرنا من الحاجة إلى جعل الطرفين يلتقيان.

لقد علم هربت سبنسر الذي أدخل داروين في مذهبه التجريبي فكرة التطور كلقاح خاص، أن التطور في الميدان الخلقي ينطلق من الأحاسيس إلى الأفكار. والأحاسيس تفرض مقياس المتعة المباشرة، بينما تسمح الأفكار للمرء بأن يتبع مقياس المتعة المستقبلية والخالدة والسامية، وعلى ذلك فإن المقياس الخلقي هنا هو المتعة والسعادة أيضاً، إلا أن مضمون هذا المقياس يتطلب اتساعاً وعمقاً يعتمدان على مستوى التطور. وقد بين هربت سبنسر بهذه الطريقة أيضاً وبواسطة طرائق تتعلق بمذهبه النفعي (التطوري) أن مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) لا يتضمن أي شيء غير أخلاقي.

وعلى أية حال، فإن من السذاجة أن نتوقع من هذا المبدأ المجرد جواباً للسؤال العملي: ماذا يمكننا أن نفعل، وماذا لا يمكننا أن نفعله؟ وأكثر من ذلك، فإن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة يطرح السؤال التالي بشكل طبيعي: وما الذي يبرر الغاية؟ في الحياة العملية كما في الحركة التاريخية، تتبادل الغاية والوسيلة أماكنهما باستمرار. فالآلة في طور التركيب (غاية) للإنتاج، ولا يمكن أن تصبح الوسيلة إلا عندما تدخل المصنع، والديمقراطية في فترات معينة هي غاية الصراع الطبقي ولا تلبث أن تتحول فيما بعد إلى وسيلة له. ومع ذلك فالمبدأ اليسوعي، باعتبار أنه لا يحتضن أي شيء غير أخلاقي، يخفق في حل المشكلة الأخلاقية.

وبنفس الطريقة يلقي بنا مذهب سبنسر النفعي (التطوري) في منتصف الطريق دون جواب، باعتبار أنه بتبعيته لداروين يحاول حل الفضائل الأخلاقية التاريخية المتماسكة في الحاجات البيولوجية، أو (في الغرائز الاجتماعية) التي تتميز

الحيوانات القطعية. ويحدث هذا في وقت يثار فيه فهم الفضائل الأخلاقية فقط في مجتمع متخاضم، أي مجتمع منقسم إلى طبقات.

إن التطورية البرجوازية، تتعثر عاجزة على عتبة المجتمع التاريخي، لأنها لا ترغب بالاعتراف بالقوة الدافعية في تطور الأشكال الاجتماعية، أي بالصراع الطبقي. والأخلاق هي إحدى الوظائف الإيديولوجية في هذا الصراع، فالطبقة الحاكمة تفرض أهدافها على المجتمع، وتعوده على أن يعتبر جميع هذه الوسائل التي تناقض غاياته، غير أخلاقية. وهذه هي الوظيفة الرئيسية للأخلاق الرسمية، أنها تتبع فكرة (أعظم سعادة ممكنة) ليس للأغلبية، وإنما لأقلية صغيرة تتناقض باستمرار. ومثل هذا النظام لم يكن ليصمد حتى لمدة أسبوع واحد بواسطة القوة وحدها، بل أنه ليجتاج إلى اسمنت الأخلاق. وبشكل إنتاج هذا الاسمنت مهنة المتطرفين البرجوازيين الصغار والأخلاقيين الصغار والأخلاقيين، وهم يعكسون جميع ألوان قوس قزح، إلا أنهم يظلون في التحليل الأخير دعاة للعبودية والاستسلام.

القواعد الخلقية ملزمة للجميع

إن من لا يكثرث بالعودة إلى موسى والمسيح ومحمد، ولا يرضى بالخلائط المنتخبة، عليه الاعتراف بأن الأخلاق نتيجة لتطور الاجتماعي، وأنه ليس ثمة من شيء ثابت بشأنها، وإنما تخدم المصالح الاجتماعية، وإن هذه المصالح المتناقضة للأخلاق، أكثر من أي شيء آخر للإيديولوجية، ذات مظهر طبقي.

ولكن ألا توجد قواعد خلقية مبدئية جرى التوصل إليها خلال تطور الجنس البشري ككل، ولا غنى عنها لوجود الجماعة نفسها؟ لا شك أن مثل هذه القواعد موجودة، إلا أن مدى فعاليتها محدود جدا وغير ثابت. وبقدر ما تكون الشخصية التي نتجت عن الصراع الطبقي حادة وذكية، بقدر ما تصبح المقاييس (الملزمة للجميع) أقل قوة. وأعلى شكل للصراع الطبقي هو الحرب الأهلية التي تفجر في الهواء جميع الارتباطات الخلقية بين الطبقات المتصارعة.

وفي الشروط (الطبيعية) يلتزم الإنسان (الطبيعي) بالوصية القائلة: (لا تقتل) ولكن إذا ما قتل في شروط استثنائية من الدفاع عن النفس، فإن المحلفين يبرئون ساحته. وإذا ما سقط ضحية قاتل فإن المحكمة ستقتل القاتل. وضرورة المحاكم بالإضافة إلى الدفاع عن النفس، تنطلق من مصالح عدائية، وفيما يتعلق بالدولة، فإنها تقتصر نفسها في أوقات السلم على القتل المشروع للأفراد بحيث أنها في وقت الحرب تستطيع تحويل الوصية الإلزامية: (لا تقتل) إلى نقيضها. وأشد الحكومات إنسانية، والتي تمقت الحرب في أوقات السلم، تعلن خلال الحرب، أن الواجب العظم لجيوشها هو محق أكبر عدد ممكن من الناس. إن ما يسمى بالقواعد الخلقية المعترف بها عامة، تحتفظ في جوهرها بسمه جبرية، أي بسمه غير ثابتة، وهي تبين فقط حقيقة كون الإنسان في سلوكه الفردي مرتبطا بمقاييس عامة معينة تمنع من كونه عضوا في المجتمع، وأعلى أشكال تعميم هذه المقاييس هو أمر كمنط المطلق. بيد أنه على الرغم من حقيقة كون هذا الأمر يحتل مركزا مرموقا في أولمب Olympus الفلسفة، فإنه لا يضم أي شيء مطلق لأنه شيئا محسوسا، إنه صدفة بلا نواة.

إن خواء هذه المقاييس الملزمة للجميع، ينبع من الحقيقة القائلة أنه بالنسبة لجميع المسائل الحاسمة، يشعر الناس بعضويتهم الطبقيّة بشكل أشد حدة ومباشرة من عضويتهم في المجتمع. إن مقاييس الأخلاق (الإلزامية) هي في الواقع مليئة بمضمون الطبقة، أي بمضمون عدائي. وبقدر ما يصبح المقياس الأخلاقي مطلقا، بقدر ما يكون (إلزاما للجميع). فالتضامن بين العمال، وبخاصة بين المتظاهرين أو المقاتلين خلف المتاريس، هو أشد (إطلاقا) من التضامن الإنساني بشكل عام.

إن البرجوازية التي تفوق البروليتارية بمراحل في كمال وعناد وغيها الطبقي، مهتمة بشكل حيوي بفرض فلسفتها الخلقية على الجماهير المستثمرة ولهذا السبب بالذات، نجد أن المقاييس المحسوسة للوعظ البرجوازي تختفي وراء ستار من التجريديات الخلقية تتجسد بالدين والفلسفة، أو بذلك المزيج الهجين المسمى (بالحس المشترك). إن اللجوء إلى القواعد المجرد ليس بخطيئة، فلسفية غير مقصودة، وإنما هو عنصر ضروري في ميكانيكية الخداع الطبقي، والكشف عن هذا الخداع الذي ينطوي على تقليد يعود إلى آلاف السنين، هو أول واجب للثوري البروليتاري.

أزمة الأخلاق الديمقراطية

من أجل أن تضمن الطبقات الحاكمة انتصار مصالحها في المسائل الكبرى، تجد نفسها مرغمة على القيام بتنازلات حول المسائل الثانوية، وهذا طبيعي، طالما أن هذه التنازلات تتفق وحساباتها. وخلال حقبة الموجة الرأسمالية، وبخاصة خلال العقود الأخيرة التي سبقت الحرب العالمية، كانت هذه التنازلات ذات طبيعة أمنية كلياً بالنسبة للطبقات العليا للبروليتارية، على الأقل. وفي ذلك الوقت، اتسعت الصناعة دون أن يعرقل اتساعها شيء. كما أن رخاء الدول المتقدمة، ورخاء الجماهير الكادحة أيضاً، قد ازداد. وبدت الديمقراطية قوية متماسكة، كما نمت المنظمات العمالية، وازدادت النزعات الإصلاحية عمقا في القوت نفسه. وأما العلاقات بين الطبقات، فقد لانت ظاهريا على الأقل. وهكذا أقيمت قواعد أخلاقية أولية في مجال العلاقات الاجتماعية، جنبا إلى جنب مع أسس الديمقراطية وعادات التضامن الطبقي. وتكونت صورة مجتمع متزايد الحرية والعدالة إنسانية، وبدا خط التقدم المتصاعد للحس المشترك غير متناه.

ومع ذلك، اندلعت الحرب جارة معها ذبلا من الانتفاضات والأزمات والكوارث والأوبئة والوحشية. ووجدت الحياة الاقتصادية للجنس البشري نفسها في طريق مسدود، وأصبح العداء الطبقي حادا ومكشوفاً. كما بدأت صمامات الأمان الديمقراطية بالانفجار واحدا بعد الآخر. وبدت القواعد الخلقية المبدئية أشد هشاشة من المؤسسات الديمقراطية والأوهام الإصلاحية. ونما الكذب والافتراء والرشوة والجشع والإكراه والقتل إلى أبعاد لم يسبق لها مثيل. وبدت جميع هذه المزعجات بالنسبة للبسطاء المشدوهين، نتيجة من نتائج الحرب، بينما كانت في الواقع، وما تزال، من مظاهر التدهور الاستعماري. إن انهيار الرأسمالية يشير إلى انهيار المجتمع المعاصر بقوانينه ومثله الأخلاقية.

إن طباق Synthesis الانحطاط الامبريالي هو الفاشية التي تتولد مباشرة عن إفلاس الديمقراطية البرجوازية أمام مشكلات الحقبة الامبريالية. وتستمر بقايا الديمقراطية بالوجود فقط في أنظمة الحكم الارستقراطية الرأسمالية الغنية. فمقابل كل ديمقراطي في انكلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا، يوجد عدد

معين من العبيد المُستَعْمَرين.. وهناك ستون أسرة تسيطر على ديمقراطية الولايات المتحدة... وهكذا... وأكثر من ذلك فإن فروع الفاشية تنمو باطراد في جميع الديمقراطيات. وأما الستالينية فهي بدورها حصيلة الضغط الامبريالي على دولة للعمال متخلفة ومنعزلة، تعتبر بمثابة تكملة مماثلة للفاشية من حيث النوع.

وفي الوقت الذي يقوم فيه الجهلة المثاليون الذين يحتل الفوضويون مكان الصدارة بينهم بالطبع، بكشف القناع في صحافتهم دون هوادة عن لأخلاقية الماركسية، تقوم التروستات الأمريكية حسبما يقول جون لـ. لويس بإنفاق ما لا يقل عن 80 مليون دولار في العام الواحد في نضال عملي مضاد يستهدف تخريب الثورة، عن طريق التجسس ورشوة العمال والتزيف وعمليات القتل في الشوارع أو في الأزقة المظلمة، إن الأمر المطلق يختار في بعض الأحيان طرقا ملتوية من أجل إحراز الانتصار.

دعونا نلاحظ بحق أن اشد أخلاقي البرجوازية الصغيرة محدودية وإخلاصا، ما يزالون يعيشون حتى اليوم ذكريات الأمس المفعمة بخيالات المثل الأعلى والأمل بعودة هذه الخيالات. إنهم لا يدركون أن الأخلاق التي هي وظيفة من وظائف الصراع الطبقي، وأن الأخلاق الديمقراطية التي تتصل بحفنة الرأسمالية الليبرالية والتقدمية، وان الصراع الطبقي الذي يزداد حدة ويجتاز آخر مراحلها، قد دمر هذه الأخلاق بشكل نهائي وحاسم. كما لا يدركون أنه حلت محلها أخلاقية الفاشية من طرف، وأخلاقية القوة البروليتارية من طرف آخر.

الحس المشترك

إن الديمقراطية والأخلاقية المعروفة بشكل عام، ليستا الضحيتين الوحيدتين للامبريالية. إن الشهيد الثالث المعذب هو الحس الكوني المشترك Universal Common Sense وهذا الشكل الأدنى للمثقف ليس ضروريا فقط في جميع الشروط، وإنما هو كاف في ظروف معينة أيضا. فرأس المال الأساسي للحس المشترك يتضمن الاستنتاجات الدولية للتجربة الكونية: عدم وضع الأصابع في النار عندما يكون في الإمكان التقدم على طريق مستقيمة، دون إثارة الكلاب الشرسة

وهكذا، إن الحس المشترك وفق مجتمع مستقر كاف للمقايسة والعلاج وكتابة المقالات وقيادة نقابات العمال والتصويت في البرلمان والزواج وإنجاب الذرية. ولكن عندما يحاول الحس المشترك نفسه تجاوز حدوده النافذة إلى حلبة من التعميمات الأشد تعقيدا، يصبح مكشوبا ككتلة من أهواء وحقبة معينة. إن أزمة رأسمالية بسيطة كافية لكي تضع الحس المشترك في طريق مسدود، وقبل حدوث كوارث كالثورة المضادة والحرب، يثبت الحس المشترك أنه أحمق كامل. ولكي نفهم تعديت المجرى الطبيعي للأحداث، هذه التعديت الفاجعة، تبدو المميزات الأسمى للذكاء ضرورية. وهذه المميزات يمكن شرحها فلسفيا بواسطة الديالكتيكية فقط.

إن ماكس ايستمان الذي يحاول تطعيم الحس المشترك بأسلوب أدبي بالغ الجاذبية، قد توصل نتيجة لنضاله ضد الديالكتيك ما لا يقل عن وظيفة لنفسه. فهو يعتبر تفاهات المحافظين المتعلقة بالحس المشترك مخرجة بطريقة جيدة، علما للثورة وبعد أن يؤيد متعاطمي الحس المشترك الرجعيين، يوضح للجنس البشري بتأكيد لا مثيل له، أنه لو كان تروتسكي لا يهتدي بهدي العقيدة الماركسية، وإنما بهدي الحس المشترك، إذا لما خسر السلطة، إن ذلك الديالكتيك الداخلي الذي ظهر حتى الآن في سلسلة من المراحل الثابتة، وفي جميع الثورات، لا يوجد بالنسبة لا يستمان. فتحويل الثورة من قبل الرجعية، يحدث بالنسبة له، من خلال وجود احترام غير كاف تجاه الحس المشترك. إن ايستمان لا يفهم أن ستالين هو الذي سقط ضحية للحس المشترك بالمعنى الديني أي نقصه، ما دامت تلك القوة التي يمتلكها تخدم أهدافا معادية للبلشفية. فالعقيدة الماركسية من وجهة أخرى، سمحت لنا أن ننشق في الوقت المناسب عن البيروقراطية الثيرميدورية Thermidorian (3)، وأن نستمر في خدمة أهداف الاشتراكية الدولية.

إن كل علم، بما في ذلك علم الثورة، يبرهن عليه بواسطة التجربة. ومادام ايستمان يعرف جيدا كيف يحافظ على السلطة الثورية في ظل شروط الثورة المضادة العالمية، فهو يعلم أيضا، كما نأمل، كيف يستولي على السلطة. وسيكون من المرغوب فيه جدا أن يكشف أخيرا عن أسرارها، وأفضل من هذا كله أن يفعل ذلك على شكل مشروع منهاج لحزب ثوري تحت عنوان: كيف تستولي على السلطة وتحافظ عليها. إننا

نخشى، مع ذلك، أن الحس المشترك بالذات، هو الذي سيدفع
ايستمان لعدم القيام بمشروع محفوف بالخطر كهذا. وفي هذه
المرّة، سيكون الحس المشترك على صواب.

لقد مكنتنا العقيدة التي لم يفهمها ايستمان إطلاقاً للأسف، أن
نرى الحتمية في ظل أوضاع تاريخية معينة لثيرميدور
سوفيتي بكل ما فيها من خفايا وجرائم، وهذه العقيدة نفسها
تنبأت قبل وقت طويل بحتمية سقوط البرجوازية الديمقراطية
وأخلاقها. وفي الوقت نفسه، جوبه دعاة الحس المشترك على
حين غرة بالفاشية والستالينية. إن الحس المشترك يعمل
بأحجام ثابتة لا تتبدل في عالم لا يثبت فيه إلا التغيير. إن
الديالكتيك على العكس، يأخذ بعين الاعتبار جميع الظواهر
والمؤسسات والمقاييس لدى ظهورها وتطورها وانحلالها،
واعتبار الديالكتيك للأخلاق نتيجة من نتائج الصراع الطبقي،
يبدو (لأخلاقية) للحس المشترك. إلا أنه ليس ثمة أخلاق أشد
عنفاً وضيقاً وانطواءً وتهكماً من أخلاق الحس المشترك.

الأخلاقيون والغيبو

لقد قدمت محاكمات موسكو الفرصة لشن حملة ضد
اللاأخلاقية البلشفية. وأكثر من ذلك، فإن هذه الحملة الصليبية
لم تشن دفعة واحدة. والحقيقة أن أغلبية الأخلاقيين كانوا
أصدقاء الكرملين بشكل مباشر وغير مباشر، وهكذا فقد
حاولوا طويلاً إخفاء دهشتهم، لا بل أنهم تظاهروا بأن شيئاً
غير عادي لم يحدث.

ولكن محاكمات موسكو لم تكن حادثاً عارضاً على الإطلاق.
فالتطاعة العمياء، والنفاق، وعبادة الكذب الرسمية، والرشوة،
والأشكال الأخرى للفساد، بدأت تزدهر ازدهاراً عظيماً في
موسكو بين عام 1924 و1925. فمحاكمات المستقبل
الصورية أعدت علانية أمام أعين العالم أجمع. ولم يكن ثمة
نقص في التحذير، إلا أن الأصدقاء مع ذلك، لم يشاؤوا
ملاحظة أي شيء. ولا عجب في ذلك، فأغلبية هؤلاء السادة
الذين كانوا أعداء ألداء لثورة تشرين الأول/أكتوبر، أصبحوا
أصدقاء للاتحاد السوفييتي، بقدر انحطاطه الثيرميدوري. لقد
وجد ديمقراطيو الغرب، هؤلاء البرجوازيون الصغار، في
بيروقراطية الشرق البرجوازية الصغيرة، قرابة بالدم.

ترى هل صدق هؤلاء الناس اتهامات موسكو حقا؟ لقد صدقوا أشد هذه الاتهامات غموضا، أما الآخرون فلم يشاؤوا أن يقلقوا أنفسهم بالتثبت من الأمر. هل من المنطقي تعكير صفو الصداقة المتينة والمريحة والجيدة المردود على الأغلب مع السفارات السوفيتية؟ وأكثر من ذلك من ذلك -ياه، إنهم لم ينسوا ذلك- فإن الحقيقة الهوجاء قد تجرح كرامة الاتحاد السوفيتي. لقد كشف هؤلاء الناس الجرائم باعتبارها نفعية، أي إنهم طبقوا علانية مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة).

وقد أخذ بريت مستشار الملك، الذي نجح في حينه بالظهور من خلال العهود الستالينية، واكتشف كل شيء في مكانه، اخذ على نفسه المبادهة التي لا حياة فيها، وسارع رومان رولان الذي تقدر سلطته الأخلاقية تقديرا عظيما من قبل دور النشر السوفيتية، سارع إلى إصدار أحد بياناته التي اتحدت فيها الغنائية الاسيانه بالتهكم. كما سارعت عصبة حقوق الإنسان الفرنسية، التي أرغت وأزبدت حول لأخلاقية لينين وتروتسكي في عام 1917 عندما فسحا التحالف العسكري مع فرنسا، سارعت لتصوير جرائم ستالين في عام 1936، وذلك لصالح الحلف الفرنسي السوفيتي. إن غاية وطنية تبرر، كما هو معروف، أية وسيلة. فقد تغاضت صحيفة (ذي نيشن) و(ذي نيو ريبوبليك) عن استثمار ياغودا Yagods، باعتبار أن صداقتهما مع الاتحاد السوفيتي ضمننت سلطتهما على الموضوع. ومع ذلك، قبل عام واحد فقط، لم يقم هؤلاء السادة، باعتبار الستالينية والتروتسكية شيئا واحدا على الإطلاق. ووقفوا إلى جانب ستالين علانية لواقعيته وعدالته ولياغوداه. وهم يلتزمون بهذا الموقف طالما تسنى لهم ذلك.

وحتى لحظة إعدام توخاشفسكي وتاكير وآخرين، راقب البرجوازيون الكبار في الدول الديمقراطية بسرور، على الرغم من أنهم تخفوا وراء قناع تصنع الفتیان، راقبوا إعدام الثوريين في الاتحاد السوفيتي. وقد استجابت لهذا المعنى كل من (ذي نيشن) و(ذي نيو ريبوبليك) و(دورانتى) و(لويس فيشر) وما شابههم من أوغاد الفكر، استجابوا كلية لمصالح الامبريالية الديمقراطية. وأثار إعدام الجنرالات البرجوازية وأرغمها على أن تدرك أن تحلل الجهاز الستاليني قد ساعد كلا من هتلر وموسوليني والميكادو. وقد بدأت النيويورك تايمز بحرص، ولكن بإصرار، بتصحيح تعليقاتها، وكذلك أخذت صحيفة الطام الباريسية بإلقاء ضوء على الوضع في

الاتحاد السوفييتي. أما بالنسبة لأخلاقي البرجوازية الصغيرة، ومنافقيها، فلم يكونوا سوى أصداء خاضعة للطبقة الرأسمالية. وأكثر من ذلك، فبعد أن أصدرت لجنة الاستقصاء الدولية برئاسة جون ديوي قرارها، أصبح الواضح حتى لأتفه العقول، أن أي دفاع مكشوف آخر عن غيبو (4) ينطوي على خطر الموت الخلقي والسياسي. وفي تلك اللحظة قرر الأخوان أن يشيعوا الحقائق الخلقية الخالدة في عالم الله، أي أن يتقهقروا عاندين إلى خندق الصف الثاني.

إن الستالينيين وأشباههم من الخائفين، لا يحتلون المكان الأخير بين الأخلاقيين. فيوجين ليونز قد انسجم انسجاما تاما مع العصبية الثيرميدورية معتبرا نفسه بلشفيا تقريبا، وبعد أن ترك الكرملين لسبب لا يهمنا- صعد على الفور إلى غيوم المثالية. وليستون أول من كان إلى وقت قريب يتمتع بقدر كبير من الثقة، من جانب الكومينترن بحيث أنه عهد إليه بالإشراف على الدعاية بالانكليزية في اسبانيا الجمهورية. ولكن هذا، بطبيعة الحال، لم يمنعه عندما تنحى عن مركزه من التتكر لألف باء الماركسية. وبعد أن انشق المنفي وولتر كريفتسكي عن الغيبو، التحق في الحال بالديمقراطيين البرجوازيين. وهذا أيضا نفس التحول الذي طرأ على تشارلز رابو بورت الهرم. فبعد أن القوا بالستالينية جانبا، لا يستطيع الذين ينتمون إلى هذا الطراز -وهم كثر- إلا أن يبحثوا عن التعويض في مسلمات الأخلاقية المجردة، بسبب خيبة الأمل في المثل العليا التي خبروها. وإذا ما سألتهم قائلا: (لماذا انتقلتم من صفوف الكومينترن أو الغيبو إلى الصفوف البرجوازية) كان جوابهم حاضرا: (التروتسكية ليست أفضل من الستالينية).

ميول لاعبي الشطرنج السياسيين

(إن التروتسكية رومانطقية ثورية، والستالينية سياسة عملية). من هذا التضاد التافه الذي يبرر فيه الجهلة حتى الأمس صداقتهم مع ثيرميدور ضد الثورة، لا يبقى أي أثر اليوم. فالتروتسكية والستالينية لم تعودا مضادتين بعد الآن، وإن متمثلتين. وهذا التماثل ينطبق، مع ذلك، على الشكل وليس على الجوهر. فبعد أن ارتد الديمقراطيون إلى الأمر المطلق، فإنهم يستمرون في الواقع بالدفاع على الغيبو، ولكن بقدر أعظم من التمويه. وهكذا فإن أولئك الذين يتهمون على

الضحية يقدمون المساعدة للجلاد. وفي هذه الحالة، كما هو الأمر بالنسبة للحالات الأخرى، تقوم الأخلاق بخدمة السياسة.

إن المتعصب الديمقراطي، والبيروقراطي الستاليني شقيقان في الروح، إذا لم يكونا توأمين. وعلى أية حال فهما ينتميان سياسيا إلى المعسكر نفسه. فنظام الحكم الراهن في فرنسا وفي اسبانيا الجمهورية -وإذا أردنا أن نضيف الفوضويين- يستند على تعاون الستالينيين والديمقراطيين الاجتماعيين والليبراليين. وإذا ما بدا حزب العمال البريطاني المستقل يعاني من المصاعب، فهذا يعود إلى انه لم ينسحب من دائرة الكومينترن طيلة عدد من السنين. وقد أقصى الحزب الاشتراكي الفرنسي التروتسكيين من مناصبهم عندما أعد العدة للاتحاد مع الستالينيين، وإذا لم يكن هذا الاتحاد قد تحقق، فإن هذا لا يعود إلى التباين المبدئي بين الطرفين - ترى ماذا بقي منه؟ وإنما إلى خوف الديمقراطيين الاشتراكيين على مناصبهم. فبعد أن عاد نورمان توماس من اسبانيا أعلن (بموضوعية) أن التروتسكيين ساعدوا فرانكو، وبهذه العبثية الذاتية قدم خدمة (موضوعية) إلى جلادي الغيبو. وقد طرد هذا الرجل التروتسكيين الأمريكيين من حزبه، في نفس الوقت الذي قام فيه الغيبو بإعدام مفكريهم في الاتحاد السوفييتي واسبانيا. وفي كثير من الدول الديمقراطية، استطاع الستالينيون على الرغم من لأخلاقيتهم، أن يتعلقوا في جهاز الدولة بنجاح. وفي مجال اتحادات العمال، انسجموا بمودة مع البيروقراطيين من الاتجاهات الأخرى. صحيح أن الستالينيين يتصرفون بكثير من اللامبالاة تجاه الأنظمة الجنائية، وبالتالي يوقعون الرعب في قلوب أصدقائهم (الديموقراطيين) في أوقات السلم، إلا أنهم في الظروف الاستثنائية التي تتجلى في مثال اسبانيا، أصبحوا بثقة أكبر زعماء البرجوازية الصغيرة ضد البروليتارية.

وبالطبع لم تحمل الأممية الثانية وأممية أمستردام على كاهليهما مسؤولية تزييف المحاكمات، وإنما تركنا هذا للكومينترن. وقد ظلتا صامتين، بينما كانتا تبيان سرا أنهما معاديتان للستالينية من وجهة النظر الأخلاقية، وإنما كانتا مؤيدتين لها من وجهة النظر السياسية. ولم يجد ليون بلو المعادلات الأخلاقية في مقر بئرته إلا عندما تصدعت الجبهة الشعبية في فرنسا تصدعا نهائيا، وأرغمت الاشتراكيين على التفكير في الغد.

وإذا كان أوتو بوير قد أدان عدالة فشينسكي إدانة طفيفة، فإن هذا يعود فقط لرغبته في تأييد سياسة سالين بقدر أعظم من عدم الانحياز. إن مصير الاشتراكية، كما جاء في بيان بوير الأخير، مرهون بمصير الاتحاد السوفيتي. و(مصير الاتحاد السوفيتي) كما يرى بوير في بيانه: (هو مصير الستالينية طالما أن (!) التنمية الداخلية في الاتحاد السوفيتي نفسه لا تتفوق على مرحلة التنمية الستالينية). إن جميع آراء بوير متضمنة في عبارته الشهيرة هذه. إن هذه العبارة تشتمل على الماركسية النمساوية بأكملها، وعلى كل الكذب والافتراء والفساد الذي تنطوي عليه الديمقراطية الاشتراكية! (طالما أن) البيروقراطية الستالينية قوية إلى الحد الذي يكفي لقتل ممثلي (التنمية الداخلية)، فإن بوير يظل متعلقاً بستالين. وعندما تطيح القوى الثورية بستالين، على الرغم من أنف بوير، فإن بوير سيعترف بكرم (بالتنمية الداخلية) بعد ما لا يزيد على عشر سنوات من التأخير.

وراء الأمميات القديمة ينشط مكتب لندن للمركزيين سعيداء، لأنه يجمع في ذاته خصائص روضة للأطفال، ومدرسة للمراهقين المعتوهين، وملجأ للعجزة. وقد بين سكرتير المكتب فيرنر بروكوي أن إجراء تحقيق حول محاكمات موسكو يمكن أن يصيب الاتحاد السوفيتي بأذى، واقترح بدلاً من ذلك إجراء استقصاء حول النشاط السياسي لتروتسكي بواسطة لجنة غير منحازة تتألف من خمسة من أعداء تروتسكي الألداء. وقد تضامن كل من براندلر ولوفستون علانية مع ياغودا، وتراجعوا من يزوف فقط. وأما جيكوب والشير فقد رفض بحجة واضحة التزييف أن يدلي بشهادة في غير صالح ستالين أمام اللجنة الدولية التي ترأسها جون دوي. إن أخلاق هؤلاء الناس المتعفنة ليست سوى نتاج سياستهم المتعفنة.

غير أنه ربما كان الدور الذي لعبه الفوضويون أشد الأدوار التي يؤسف لها. فإذا ما كانت الستالينية والتروتسكية شيئاً واحداً، كما يؤكدون في كل عبارة من عباراتهم، إذا فلماذا يساعد الفوضويون الأسباب الستالينيين في الانتقام من التروتسكيين ومن الفوضويين الثوريين في الوقت نفسه؟ إن المنظرين الفوضويون الأشد صراحة يجيبون على ذلك بقولهم: إن هذا ثمن للأسلحة. وبكلمات أخرى: الغاية تبرر

الوسيلة. ولكن ما هي غايتهم؟ الفوضوية؟ الاشتراكية؟ كلا. إن غايتهم هي فقط إنقاذ هذه الديمقراطية البرجوازية نفسها، البرجوازية التي مهدت لنجاح الفاشية.

تلكم هي الميول الحقيقية لأحجار الشطرنج فوق لوحة السياسة العالمية.

الستالينية نتاج المجتمع القديم

لقد قفزت روسيا أكبر قفزة لها في التاريخ، قفزة وجدت فيها أشد القوى تقدمية في البلاد، المجال للتعبير عن نفسها. وفي ظل التيار الرجعي الراهن الذي يماثل تيار الثورة، يأتي التخلف ليأخذ بالنثار. إن الستالينية تحتضن هذا التيار الرجعي، وبربرية التاريخ الروسي القديم تبدو أشد إثارة للاشمئزاز وهي مستندة على قواعد اجتماعية جديدة، مادامت مكرهة على أن تخفي نفسها في ثوب النفاق الذي لا مثيل له في التاريخ.

إن ليبرالي وديمقراطي الغرب الاشتراكيين الذين أرغموا بفعل الثورة الروسية على التشكيك بأرائهم العفنة، يشعرون الآن بدفق جديد من الشجاعة. إن الغنغرينا الأخلاقية للبيروقراطية السوفيتية بدت لهم بمثابة إعادة لاعتبار الليبرالية. وهكذا توضع الدفاتر المكررة تحت الأضواء: (كل دكتاتورية تتضمن بذور انحدارها)، (الديمقراطية فقط تضمن تنمية الشخصية) وهكذا. إن المقارنة بين الديمقراطية التي تنطوي في الحالة التي قدمناها على تنديد بالاشتراكية في صالح النظام البرجوازي، تصرع إحداها نظريا بما تنطوي عليه من أمية واعوجاج. إن الفساد الستاليني، كحقيقة تاريخية، يقف في المركز المعاكس للديمقراطية: هذا تجريد فوق تاريخي ولكن الديمقراطية تمتلك تاريخا أيضا لا يفتقر إلى الفساد. لقد استعرنا كلمتي ثيرميدور واليونابريته من تاريخ البرجوازية من أجل تصوير البيروقراطية السوفيتية - فليصبح معلوما لأصحاب العقائد الليبرالية المتقهقرين أن الديمقراطية لم تظهر في العالم بواسطة الطريق الديمقراطية على الإطلاق. إن عقلية سوقية فقط تستطيع أن ترضي نفسها باحتراز فكرة كون اليونابرتية النتاج الطبيعي لليعقوبية، العقاب التاريخي لانتهاك حرمة الديمقراطية... وهكذا بدون العقاب الذي أوقعته اليعقوبية على الإقطاعية، لم تكن

البرجوازية الديمقراطية لتحقيق على الإطلاق. فمقارنة المراحل الثابتة لليعقوبية والثيروميدورية والبونابرتية مع التجريد المالي للديمقراطية، مقارنة تنطوي على شر يماثل مقارنة الآم الوضع.

إن الستالينية بدورها ليست تجريدا للديكتاتورية، وإنما هي، رد فعل بيروقراطي واسع ضد الديكتاتورية البروليتارية في دولة متخلفة منعزلة. لقد قضت ثورة أكتوبر على الامتيازات، وشنت حربا ضد فقدان المساواة الاجتماعية، واستبدلت بالبيروقراطية حكومة ذاتية للكادحين، وقضت على الدبلوماسية السرية، وحاولت جهودها لكي تجعل جميع العلاقات الاجتماعية واضحة للعيان. وأما الستالينية فقد أعادت أشد أنواع الامتيازات جورا، وموهت عدم المساواة بطريقة استفزازية، وقضت على النشاط الذاتي قضاء مبررا عن طريق سلطة البوليس المطلقة، وحولت الدولة إلى احتكار لأولغارشية الكرملين، وأعادت الحياة لوثنية القوة من خلال أشكال لم تكن الملكية المطلقة لتحلم بها.

إن الرجعية الاجتماعية بجميع أشكالها، مضطرة لإخفاء نواياها الحقيقية، وبقدر ما يكون الانتقال من الثورة إلى الرجعية حادا، بقدر ما تعتمد الرجعية على أعراف الثورة وتقاليدها، أي أنه بقدر ما يعظم خوفها من الجماهير، بقدر ما تضطر للجوء إلى الخداع والاحتياط في صراعها ضد ممثلي الثورة. إن تلفيقات الستالينية ليست ثمرة اللاأخلاقية البلشفية. كلا إنها، مثلها مثل جميع الأحداث الهامة في التاريخ، نتاج الصراع الاجتماعي الحاد، وحصيلة أشد هذه الصراعات حدة، أي الصراع الأرستقراطية الجديدة ضد الجماهير التي أوصلتها للحكم.

والحق أن الانفراج الخلقي والثقافي المطلق ضروري للمفاضلة بين أخلاقية البوليس الرجعية للستالينية، وأخلاقية البلشفية الثورية. لقد انتهى حزب لينين قبل وقت طويل، وتصدع بفعل الصعوبات الداخلية والامبريالية العالمية، ونشأت محله البيروقراطية الستالينية، أداة البت الامبريالية. وقد أحلت البيروقراطية التعاون بين الطبقات، محل الصراع الطبقي في المسرح العالمي، وأحلت الوطنية الاجتماعية محل الأممية. ولكي تهين البيروقراطية الحزب الحاكم لتنفيذ

مهمات الرجعية، قامت بتجديد تركيبها عن طريق إعدام الثوريين واستخدام المحترفين.

إن الرجعية تنعش وتقوي وتعيد الحياة إلى تلك العناصر ذات الماضي التاريخي، والتي قضت عليها الثورة دون أن تنجح في محوها. إن طرق الستالينية تدفع إلى أقصى درجات التوتر وإلى قمة اللامعقول، جميع وسائل الكذب والوحشية التي تنطوي عليها أجهزة السيطرة في كل مجتمع طبقي، بما في ذلك المجتمع الديمقراطي. إن الستالينية مركز تجمع لكل الأعمال الوحشية للدولة التاريخية، ولأشد صورها حقدا وبشاعة وإثارة للاشمئزاز. وعندما يضع ممثلو المجتمع القديم تجريدا مصفى للديمقراطية مقابل غنغرينا الستالينية، نكون محقين كل الحق الطلب إليهم بأن ينظروا إلى أنفسهم في مرآة الثيرميدورية السوفيتية المنحرفة. أجل إن الغيبو قد فاق جميع الأنظمة الأخرى في وحشية جرائمه، إلا أن هذا ينبع من اتساع رقعة الأحداث التي هزت روسيا بتأثير حملات الامبريالية العالمية التي استهدفت إفسادها وتثبيط عزيمتها.

إن من بين الليبراليين والراديكاليين، نفر من الأفراد الذين تمثلوا طرائف التفسير المادي للأحداث ويعبرون أنفسهم ماركسيين، إلا أن هذا لا يمنعهم من أن يظلوا صحفيين برجوازيين أو أساتذة أو سياسيين. إن البلشفي لا يمكن أن يتحقق دون وجود الأسلوب المادي طبعاً، وهذا ينطبق على مجال الأخلاق أيضاً. إلا أن هذا الأسلوب لا يساعده فقط على تفسير الأحداث، وإنما على خلق حزب ثوري للبروليتارية. ومن المستحيل تحقيق هذه المهمة دون وجود انفصال كلي عن البرجوازية وأخلاقيتها. ومع ذلك، فإن الرأي العام البرجوازي يسيطر الآن كلية على حركات العمال الرسمية، ابتداء من حركة وليم غرين في الولايات المتحدة، وليون بلوم وموريس توريز في فرنسا إلى غارسيا أوليفر في اسبانيا. وبهذه الحقيقة يصل الوجه الرجعي للفترة الراهنة، أشد درجات تعبيره حدة.

إن الماركسي الثوري لا يمكن أن يبدأ برسالته التاريخية دون أن ينشق أخلاقياً عن الرأي العام البرجوازي وعملائه في طبقة البروليتارية. ومن هنا فإن المطلوب وجود شجاعة خلقية من مقياس آخر يختلف عن فتح الأفواه في الاجتماعات والتهاتف: (يسقط هتلر)، (يسقط فرانكو). إن هذا الانشقاق

الحازم والمدير والذي لا تلين قناته، هذا الانشقاق لدى البلاشفة عن الفلسفة الخلقية المحافظة، وليس عن البرجوازية الصغيرة فحسب، هو الذي يصيب تجار الكلمات، وأنبياء الصالونات، وأبطال الكواليس بالرعب القاتل. من هنا تنبع شكواهم حول لأخلاقية البلاشفة.

إن هذه المطابقة بين الأخلاق (بشكل عام)، يمكن أن تتحقق في أفضل وجوهها لدى جناح البرجوازية الصغيرة اليساري المتطرف، ويتحقق لدى أحزاب مكتب لندن المركزية. ومادامت هذه المنظمة تعترف بمنهاج الثورة البروليتارية، فإن مخالفتنا لها تبدو ثانوية للوهلة الأولى. والواقع أن اعترافها عديم القيمة لأنها لا تربطه بشيء. فهي تعترف بالثورة البروليتارية، كما يعترف أتباع كمنط بالأمر المطلق، أي كمبدأ مقدس، ولكنه غير ممكن التطبيق في الحياة العملية. وفي مجال السياسة العملية، يوجد مكتب لندن بين أعنف أعداء الثورة (الإصلاحيين والستالينيين) من أجل الصراع ضدنا. إنه تفكير مغرق في التزييف. فإذا ما كان المركزيون حسب القاعدة العامة لا يضعون أنفسهم في موضع من يرتكب الجرائم: فإن هذا يعود لأنهم يظلون في الشوارع الخلفية للسياسة: إنهم نشالون صغار للتاريخ، ولهذا السبب فهم يعتبرون أنفسهم مدعويين لتجديد حركة العمال بأخلاقية جديدة.

وإلى أقصى يسار هذا الإخاء (اليساري) تقف مجموعات صغيرة من المهاجرين الألمان لا أهمية لها إطلاقاً من الناحية السياسية، وتصدر صحيفة (الطريق الجديد Neuer Weg). دعونا ننحي أكثر ونستمع إلى هؤلاء المتهمين (الثوريين) الذين يشيرون بأصابعهم إلى لأخلاقية البلاشفة. إن صحيفة (الطريق الجديد) تعلن بلهجة غامضة أن البلاشفة يتميزون عن الأحزاب الأخرى باختفاء عنصر النفاق لديهم — ويعلمون أن الآخرين يطبقون مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. إلا أنه وفقاً لقناعات (الطريق الجديد) يبدو مثل هذا المبدأ البرجوازي متناقضاً مع (حركة اشتراكية صحيحة). (الكذب وما هو أسوأ منه ليس وسيلة مشروعاً للنضال، كما لا يزال لينين يؤمن). إن كلمة (لا يزال) تشير إلى أن لينين لم ينجح في التغلب على أوهامه حتى اكتشاف (الطريق الجديد).

وفي معادلة (الكذب وما أسوأ منه) تدل كلمة (أسوأ) كما هو واضح، على العنف والقتل وما إلى ذلك، مادام في ظل شروط

متعادلة أسوأ من الكذب، والقتل أشد أشكال العنف تطرفاً. وهكذا نصل إلى نتيجة مفادها أن الكذب والعنف والقتل تتنافى مع حركة اشتراكية صحية. فما هي علاقتنا إذن بالثورة؟ إن الحرب الأهلية هي أشد أشكال الحرب حدة، ولا يمكن أن تحدث دون استخدام العنف فحسب، وإنما دون استخدام التكتيك المعاصر لقتل الشيوخ والنساء والأطفال. فهل على المرء أن يتذكر اسبانيا، إن الجواب الممكن الوحيد لأصدقاء اسبانيا الجمهورية هو كالتالي: إن الحرب الأهلية أفضل من العبودية الفاشية، غير أن الجواب الصحيح تماماً يعني فقط أن الغاية (الديمقراطية أو الاشتراكية) تبرر على ضوء شروط معينة، وسائل كالعنف والقتل، هذا إذا لم نذكر الكذب! فبدون الكذب تبدو الحرب مستحيلة، كما أن الآلة لا تعمل دون وجود الزيت. فمن أجل حماية جلسة مجلس النواب من قنابل الفاشيين، خدعت حكومة برشلونة الصحفيين عدة مرات عن عمد، كما خدعت رعاياها. فهل كان بوسعها التصرف على نحو آخر؟ عن من يقبل بالغاية: النصر على فرانكو، عليه أن يقبل بالوسيلة: الحرب الأهلية وما يرافقها من فظائع وجرائم.

ومع ذلك، ألا يثير الكذب والعنف (في حد ذاتهما) الاستنكار؟ بالطبع إنهما يثيران الاستنكار، كما يثير الاستنكار ذلك المجتمع الطبقي الذي يتولدان عنه. إن مجتمعا بلا تناقضات اجتماعية، سيكون بطبيعة الحال مجتمعا دون كذب ودون عنف. ومع ذلك، فليس هناك من طريق لبناء جسر يوصل إلى ذلك المجتمع، إلا بالوسائل الثورية، أي بالعنف. إن الثورة في حد ذاتها نتاج المجتمع الطبقي، وهي تحمل آثاره بالضرورة. ومن وجهة نظر (الحقائق الأزلية) تبدو الثورة (ضد الأخلاق) بطبيعة الحال. إلا أن هذا يعني فقط أن الأخلاقية المثالية مناهضة للثورية، أي أنها في خدمة المستغلين.

إن الحرب (الأهلية) كما قد يرى الفيلسوف: (هي استثناء محزن على أية حال. بيد أن حركة اشتراكية صحيحة يجب أن تنجح في أوقات السلم، دون عنف وكذب). مثل هذا الجواب لا يشكل أقل من موارد تنطوي على شيء من العطف. لا توجد حدود لا يمكن اجتيازها بين النضال الطبقي السلمي وبين الثورة. فكل إضراب يضم بشكل مركز جميع عناصر الحرب الأهلية، وكل طرف يجهد للتأثير على الخصم بواسطة صورة مبالغ فيها، تبين تصميمه على النضال وإمكاناته المادية. ويحاول الرأسماليون بواسطة صحافتهم وعملائهم

وجواسيسهم، دب الرعب والوهن في قلوب المتظاهرين، وتضطر شراذم العمال من جانبها إلى اللجوء للقوة عندما لا ينجح الإقناع. وهكذا، فإن (الكذب وما هو أسوأ منه) هما جزء لا يتجزأ من النضال الطبقي، حتى في أشد مراحلها بدائية. ونضيف على ذلك، أن معنى الحقيقة والكذب قد تولد عن التناقضات الاجتماعية.

الثورة ونظام الرهائن

إن ستالين يقبض على أطفال خصومه ويعدمهم رميا بالرصاص، بعد أن يقضي على هؤلاء الخصوم، عن طريق اتهامات مزيفة. وبمساعدة مؤسسة الأسرة، يرغم ستالين أولئك الدبلوماسيين السوفييت الذين سمحوا لأنفسهم بالتعبير عن شكوكهم في عصمة ياغودا أو يازوف، يرغمهم على العودة من الخارج. ويجد أخلاقيو (الطريق الجيد) إن من الضروري والمناسب تذكيرنا بهذه المناسبة، بحقيقة كون تروتسكي قد قدم أيضا قانونا في عام 1919 يتعلق بالرهائن، ولكن يصبح من الضروري هنا أن نقتطف كلام (الطريق الجديد) حرفيا: (إن اعتقال الأقرباء الأبرياء ممن قبل ستالين بربرية تثير الاشمئزاز، ولكنها تظل بربرية عندما أمر بها تروتسكي عام 1919). ذلكم هو الأخلاقي المثالي بكل روعته وجماله! إن مقاييسه تناهز في تزييفها مقاييس الديمقراطية البرجوازية وفي الحالتين يفترض التشابه، حيث لا يوجد أثر له في الواقع.

إننا لن نصر هنا على حقيقة كون قانون عام 1919 لم يؤد، إلا في أحوال نادرة جدا، إلى إعدام أقرباء أولئك القادة الذين لم تؤد خيانتهم إلى فقدانها أعدادا لا تحصى من البشر فحسب، وإنما هددت الثورة نفسها بالدمار. والمسألة في النهاية لا تتعلق بهذا، فلو أن الثورة أبدت كرما أقل منذ البداية، لأمكن إنقاذ حياة مئات الآلاف من الناس. هكذا فإنني أتحمل المسؤولية الكاملة لقانون 1919. لقد كانت وسيلة ضرورية للنضال ضد الظالمين. إن تبرير القانون يكمن في المحتوى التاريخي للنضال فقط، كما يمكن تبرير الحرب الأهلية أيضا، وهي الحرب التي يمكن أن تدعوها بحق (بربرية تثير الاشمئزاز).

إننا نترك لأميل لودفيغ أو أمثاله رسم صورة أبراهام لنكولن بأجنحة وردية صغيرة. فمغزى لنكولن لا يمكن في تروده أمام أشد الوسائل حدة، عندما تبدو هذه الوسائل ضرورية من أجل انجاز هدف تاريخي عظيم يفرضه تطور دولة ناشئة. إن المسألة لا تكمن حتى في عدد الضحايا الذي سببه المعسكران المتصارعان، أو تحمله. فالتاريخ لديه مقاييس مختلفة يقيس بها قسوة الشماليين والجنوبيين في الحرب الأهلية. فهناك مالك العبيد الذي يكبد عبيده بواسطة المكر والعنف، وهناك العبد الذي يحطم بالمكر أو الأعنف أغلاله -ألا فليكيف الخصيان المهانون عن إخبارنا بأنهم متساوون أمام محكمة الأخلاق!!

بعد أن أغرقت كومونة باريس بالدماء، وأخذ الأوغاد الرجعيون في العالم أجمع يلطخون رايتها بالقدح والتشهير، لم يوجد حتى عدد قليل من جهّال الديمقراطية المتأملقين مع الرجعية، يبادر إلى مهاجمة القائمين على الكومونة، بسبب إعدامهم لـ 64 رهينة، وعلى رأسهم كبير أساقفة باريس. إن ماركس لم يتردد لحظة في الدفاع عن تصرف الكومونة الدموي هذا. وقد ذكرنا ماركس في منشور صادر عن المجلس العام للأمية الأولى، كان ينضح بنيران المهل (5)، ذكرنا بالبرجوازية التي اتبعت نظام الرهائن ضد الشعوب المستعمرة، وضد طبقاتها الكادحة. ثم أشار بعد ذلك إلى الإعدام المنظم الذي نفذه الرجعيون المسعورون ضد أسرى الكومونة، وقال (لقد اضطرت الكومونة لكي تحمي حياة أسرارها، للجوء إلى الأسلوب البروسي، أسلوب الحصول على الرهائن. وقد فقدت حياة الكثيرين من الرهائن بسبب استمرار إعدام المساجين من جانب فرساي، فكيف يمكن إنقاذهم بعد الآن، بعد المذبحة التي دشّن حرس مكماهون بها دخولهم إلى باريس. فهل اعتبر آخر قيد على وحشية الحكومات البرجوازية العديمة الضمير -أخذ الرهائن- عارا يثير الخجل؟). لقد دافع ماركس عن إعدام الرهائن، على الرغم من انه جلس خلفه في (المجلس العام)، عدد غير قليل من إتباع فيرنر بروكوي ونورمان توماس واوتو بورز. ولكن غضب العالم البروليتاري ضد وحشية فرساي كان لا يزال ماثلا في الأذهان، بحيث أن الأخلاقيين الرجعيين الأغبياء، فضلوا الاعتصام بالصمت انتظارا لوقت أشد ملاءمة لهم، لم يلبث أن حان بسرعة ويا للأسف، ولم يحزب الأخلاقيون من البرجوازيين الصغار، وبيروقراطيو اتحادات العمال

والفوضويون، على الأهمية الأولى، إلا عندما بدأ أن الرجعية قد أحرزت نصرا ساحقا.

وعندما كانت ثورة تشرين الأول/أكتوبر تدافع عن نفسها ضد قوى الامبريالية المتحدة، على طول 5000 ميل، اتبع عمال العالم أجمع خط النضال باندفاع شديد، جعلهم يرون من الخطورة بمكان الشكوى من (البربرية المثيرة للاشمئزاز) لنظام الرهائن. إن تدهور الدولة السوفيتية الكامل وانتصار الرجعية في عدد من البلدان، كان ضروريا لكي يزحف الأخلاقيون من داخل مخابئهم لمد يد المساعدة لستالين. فإذا ما كان صحيحا أن أعمال القمع التي تحمي امتيازات الارستقراطية الجديدة، تحمل نفس القيمة الخلقية التي تحملها الخطوات الثورية للنضال التحرري، فإن ستالين معذور كليا إذن، إذا لم تتعرض الثورة البروليتارية كلها للإدانة.

إن السادة الأخلاقيين، في بحثهم عن نماذج تمثل لأخلاقية الحرب الأهلية الروسية يجدون أنفسهم، في الوقت نفسه، مرغمين على التعامي عن حقيقة كون الثورة الاسبانية قد استخدمت أيضا نظام الرهائن، خلال الفترة التي كانت فيها ثورة حقيقية للجماهير على الأقل. فإذا لم يهاجم الذين يوجهون الاتهام، العمال الاسبان، لسبب (بربريتهم المثيرة للاشمئزاز)، فإن هذا يعود فقط لأن أراضي شبه جزيرة البرنيه Pyrennean ما تزال حارة جدا بالنسبة لهم. إن من المناسب أكثر بكثير العودة إلى عام 1919، فإن هذا التاريخ نسيه الكهول، ولم يتعلمه الشبان بعد. ولهذا السبب نفسه، فإن الفريسيين من جميع الفئات يتذكرون كرونشتاد Kronstadt (6) وماخنو Makhno (7) بكثير من العناد —وهنا يوجد المخرج للطوباوية الخلقية.

أخلاق الكفير (8)

من المستحيل ألا نقف مع الأخلاقيين في أن التاريخ يختار مسالك قاسية. ولكن أي نوع من النتائج لنشاطنا العملي، يمكن أن نستخلصه من ذلك؟ لقد أوصى ليون تولستوي بأن ننسى الأعراف الاجتماعية وأن نصل إلى درجة الكمال. وينصح المهاتما غاندي بشرب حليب الماعز. إن أخلاقيي (الطريق الجديد)، (الثوريين) لم يذهبوا بعيدا للأسف. عن هذه الوصفات. إنهم يبشرون بان (علينا أن نحرر أنفسنا) من

(أخلاق الكفير) الذي يعتبر أم ما يفعله العدو هو الخطأ فحسب. إنها لنصيحة ممتازة! (إن علينا أن نحرر أنفسنا...)، لقد أوصى تولستوي أيضا بأن نحرر أنفسنا من خطايا الجسد. ومع ذلك فإن الأرقام تخفق في تأكيد نجاح وصيته. لقد نجح أقزام الوسط عندنا في رفع أنفسهم إلى أخلاقية الطبقة العليا في مجتمع طبقي. ولكن 2000 عام مضت تقريبا منذ أن قيل: (أحب أعداءك)، (أدر خدك الأيمن)، ومع ذلك فحتى الأب الروماني المقدس لم ينجح حتى الآن في (تحرير نفسه) من كراهية أعدائه. حقا أن الشيطان عدو الجنس البشري، على قدر كبير من القوة!

إن تطبيق مقاييس مختلفة للعمل، بالنسبة للمستغلين والمستغلين يمثل، بالنسبة لهؤلاء الأقرام، الذين يستحقون الشفقة، الوقوف عند مستوى (أخلاق الكفير). فقبل كل شيء ليس من عادة (الاشتراكيين) الإشارة إلى الكفيريين بازدراء، فهل أخلاق الكفيريين سيئة حقا؟ إليكم ما تقوله الموسوعة البريطانية حول الموضوع:

(إن الكفيريين يبدوون في علاقاتهم الاجتماعية والسياسية الكثير من اللطف والذكاء، وهم شجعان إلى حد كبير، ومحاربون وكرماء. كما أنهم ظلوا أمناء وصادقين، حتى اتصل بهم البيض، فأصبحوا شكاكين ومحبيين للانتقام، والسرقه، هذا بالإضافة إلى أنهم اكتسبوا معظم رذائل الأوربيين). ومن المحال ألا نصل إلى نتيجة مفادها أن بعثات التبشير البيضاء، مبشري الأخلاق الأزلية، قد أسهموا في إفساد الكفيريين.

إن ما قمنا بإخبار الكادح الكفير كيف هب العمال في جزء من كوكبنا، وداهموا مستغليهم على غفلة منهم، فإنه سيكون سعيدا جدا. ومن جهة أخرى، فإنه سيشعر بكثير من الاكتئاب، إذا ما اكتشفت أن الظالمين قد نجحوا في خداع المظلومين. إن الكفير الذي لم تفسده البعثات التبشيرية حتى النخاع، لن يطبق نفس المقاييس الأخلاقية المجردة على الظالمين والمظلومين. ومن هنا، فهو سيفهم بسهولة توضيحا مفاده أن وظيفة هذه المقاييس المجردة منع المظلومين من الثورة ضد ظالمهم.

يا لها من مصادفة بناءة! فلكي يتهج مبشرو (الطريق الجديد) على البلاشفة، اضطروا في الوقت نفسه إلى التهج على

الكفيريين. وأكثر من ذلك، فإن التهجم يسير في خط الكذبة البرجوازية الرسمية: أي ضد الثوريين وضد الملونين. كلا أننا لنفضل الكفيريين على جميع بعثات التبشير الروحية والعلمانية!

ومع ذلك فإن من الضروري بالنسبة لأية قضية، أن نغالي في تقدير شدة الضمير لدى أخلاقيي (الطريق الجديد) والجماعات الأخرى التي تسير في طريق مسدودة. إن نوايا هؤلاء الناس ليست سيئة جداً، إلا أنه على الرغم من هذه المؤسسات، فإنهم يقومون بدور الرافعة في جهاز الرجعية. في هذا الوقت الذي تلتصق فيه أحزاب البرجوازية الصغيرة بالبرجوازية الليبرالية، أو بظلمها (سياسة الجبهة الشعبية) تقوم بشل البروليتارية، وتمهيد الطريق للفاشية (اسبانيا، فرنسا...). ويصبح البلاشفة، أي الماركسيين الثوريين، جماعة ممقوتة في أعين الرأي العام البرجوازي. إن الضغط السياسي الأساسي في زماننا ينتقل من اليمين إلى اليسار. وفي التحليل الأخير، يقع ثقل الرجعية كلها على كواهل أقلية ثورية صغيرة، وهذه الأقلية تدعى بـ(الأممية الرابعة) ذلكم هو العدو.

إن الستالينية تحتل في جهاز الرجعية مراكز قيادية عديدة. فجميع تجمعات المجتمع البرجوازي، بما في ذلك الفوضويين، تعتمد على مساعدتها في نضالها ضد الثورة البروليتارية، وفي الوقت نفسه، يحاول ديمقراطيو البرجوازية الصغيرة بنسبة خمسين بالمائة على الأقل، أن يلقوا بعبء جرائم حلفائهم في موسكو، على الأقلية الثورية التي لا تقهر. وفي هذا يكمن معنى القول الشائع: (التروتسكية والستالينية كل واحد ومتمائل). وهكذا فإن خصوم البلاشفة والكفيريين يساعدون الرجعية في التهجم على حزب الثورة.

لأخلاقية لينين

لقد كان (الثوريون الاجتماعيون) الروس، أشد لأفراد أخلاقية دائماً، وهم يتألفون من الأخلاقيين وحدهم. ولكن هذا لم يمنعهم، مع ذلك، من خداع الفلاحين الروس وقت الثورة. يكتب زنزينوف Zenzinov، ذلك الاشتراكي الأخلاقي جداً، والذي سبق ستالين في تليف الاتهامات ضد البلاشفة، يكتب هذا (الثوري الاجتماعي) في الصحيفة الباريسية الناطقة باسم

كيرنسكي قائلاً: (لقد علم لينين كما هو معروف أن الشيوعيين يستطيعون تحقيق الأهداف المرجوة ويتوجب عليهم في بعض الأحيان، اللجوء إلى جميع أنواع الحيل والمناورات). (روسيا الجديدة عدد 17 شباط 1938 ص 3). من هذا استنتجوا استنتاجهم الطقسي: الستالينية هي النتيجة الطبيعية للينينية.

ولسوء الحظ، فإن موجهي الاتهام الأخلاقيين ليسوا قادرين حتى على الاستشهاد بأقوال الآخرين بأمانة. لقد قال لينين: (إن من الضروري أن نكون قادرين... للجوء إلى جميع أنواع الحيل والمناورات والأساليب غير المشروعة، وإلى المراوغة والتحايل، من أجل النفاذ إلى نقابات العمال والبقاء فيها، والاستمرار بالعمل الشيوعي في داخلها بأي ثمن). إن الحاجة للمراوغة والمناورة، كما يوضح لينين، تحتمها حقيقة كون البيروقراطية الأخلاقية تخون العمال، وتقف بجانب رأس المال، وتهاجم الثوريين وتضطهدهم، وتلجأ حتى إلى إرشاد بوليس البرجوازية إليهم. إن (المناورات) و(الحيل) هي في هذه الحالة مجرد أساليب للدفاع المشروع عن النفس ضد البيروقراطية الإصلاحية الغادرة. إن حزب زرينوف هذا قام مرة بعمل غير مشروع ضد القيصرية، وضد البلاشفة فيما بعد. وفي الحالتين لجأ إلى الخبث والمراوغة وجوازات السفر المزورة، وأشكال التحايل الأخرى. كل هذه الأساليب لم تعتبر أخلاقية فحسب، وإنما بطولية أيضاً، لأنها اتفقت والأهداف السياسية للبرجوازية الصغيرة. ولكن الموقف يتبدل دفعة واحدة عندما يضطر الثوريون البروليتاريون إلى اللجوء بأساليب تآمرية ضد الديمقراطية البرجوازية. إن مفتاح أخلاقية هؤلاء السادة له، كما نرى، شكل طبقي!

إن (اللاأخلاقي) لينين يقدم في الصحافة علانية، نصيحة تتعلق بالدهاء العسكري ضد القادة الخونة. ويعتبر الأخلاقي زرينوف بحقد، طرفي عبارة لينين لخداع القارئ. إن موجه الاتهام الأخلاقي يتبين كالعادة، مجرد محرف صغير. إن لينين لم يكن مغرماً بتكرار عبارة: (إن من الصعب مقابلة الأعداء من أصحاب الضمائر) لم يكن لينين مغرماً بتكرار هذه العبرة دون سبب!

والعامل الذي لا يخفي عن الرأسماليين حقيقة الخطط التي يعتزم المضربون تنفيذها، إنما هو خائن يستحق الازدراء والمقاطعة. والجندي الذي يفضح الحقيقة للعدو يعاقب على

أساس أنه جاسوس. لقد حاول كيرنسكي أن يتهم البلاشفة بأنهم قد أفصحوا عن الحقيقة لجماعة لودندوف. ويبدو أنه حتى الحقيقة المقدسة ليست غاية في حد ذاتها، فإن مقاييس أشد تعسفا، تبدو من خلال التحليل، وتحمل شكلا طبقيًا هي التي تسيطر عليها.

إن نضال الحياة والموت غير ممكن دون دهاء عسكري، أو بعبارة أخرى دون كذب وخداع. فهل المطلوب من البروليتاري الألماني ألا يخدع بوليس هتلر، أم لعل موقف البلاشفة السوفييت بالأخلاقية عندما يخدعون الغيبو. إن كل برجوازي يصفق لذكاء البوليس عندما ينجح بخبثه ودهائه، بالقبض على مجرم خطر، فهل الخبث والدهاء العسكريان مسموح بهما حقا عندما يتعلق الأمر بالإطاحة بغانغستر الامبريالية؟

يتحدث نورمان توماس عن (اللااخلاقية الشيوعية العجيبة التي لا يهتمها سوى الحزب وسلطته) (سوششاليسنت كول، 12 آذار 1938 ص 5). وأكثر من ذلك، فإن توماس يضرب بالكومنتيرن عرض الحائط ويعتبره مؤامرة دبرتها بيروقراطية الكرملين المعادية للطبقة العاملة مع حزب البلاشفة الذي مثل مؤامرة العمال المتقدمين ضد البرجوازية. هذه المطابقة غير الأمنية إطلاقا، قد فضحت أعلاه بما فيه الكفاية. إن الستالينية تفضح نفسها بخضوعها لعبادة الحزب، والواقع أنها تدمر الحزب وتمرغه بالوحد. ومع ذلك، فإنه لصحيح أن الحزب بالنسبة للبلاشفة هو كل شيء. و(توماس) اشتراكي الصالونات يشعر بالدهشة من وجود علاقة متشابهة بين ثوري ما وبين الثورة، ويعترض عليها لأنه هو نفسه مجرد برجوازي يحمل (مثلا أعلى) اشتراكيا. والحزب في أعين توماس وإضرابه مجرد أداة ثانوية للحملات الانتخابية والأغراض المشابهة، لا أكثر. فحياته الشخصية ومصالحه وارتباطاته ومقاييسه الخلقية توجد خارج الحزب، وهو ينظر من عل وبشيء من الدهشة العدائية إلى البلاشفة، الذين يرون في الحزب سلاحا لتجديد بناء المجتمع ثوريا، بما في ذلك أخلاقه أيضا. وبالنسبة للماركسي الثوري، لا يمكن أن يوجد تناقض بين الأخلاق الشخصية ومصالح الحزب باعتبار أن الحزب يضم في ضميره ووجدانه أعلى مهمات وأهداف الجنس البشري. إنه لمن السذاجة أن نتخيل أن لدى توماس

قدرا أعلى من الفهم للأخلاق، مما لدى الماركسيين، إن لديه مجرد تصور مبدئي للحزب.

يقول الديالكتيكي غوته: (أن كل ما يظهر مآله إلى زوال). وزوال حزب البلاشفة -حديث الرجعية العالمية- لا يقلل مع ذلك من دلالاته العالمية التاريخية. لقد كان خلال صعوده الثوري، أي عندما مثل فعلا طليعة البروليتارية، كان أشد الأحزاب أمانة في التاريخ... وبالطبع فقد خدع الأعداء الطبقيين أنى استطاع إلى ذلك سبيلا. ومن وجهة أخرى أخبر الكادحين بالحقيقة، الحقيقة الكاملة ولا شيء سوى الحقيقة. ولهذا السبب فقط يعزى نجاحه في كسب ثقتهم إلى درجة لم يحرزها أي حزب آخر في العالم من قبل.

إن كتبة الطبقات الحاكمة يدعون منظمي هذا الحزب بالأخلاقيين. وهذا الاتهام يحمل في أعين العمال الواعين لونا من الإطراء، فهو يشير إلى أن لينين قد رفض الاعتراف بالمقاييس الخليفة التي وضعها ملوك العبيد لعبيدهم، ولم يلتزم بها أنفسهم، وهو يشير أيضا إلى أن لينين قد دعا البروليتارية لكي توسع من نطاق نضالها الطبقي إلى المجال الخلقي أيضا. إن الذين يتملقون الشرائع التي وضعها العدو، لن ينجحوا مطلقا في التغلب على ذلك العدو!

إن (لأخلاقية) لينين، أي رفضه لأخلاق الطبقة العليا، لم يمنعه من أن يظل أمينا لمثل أعلى واحد خلال حياته كلها، ولم يمنعه من تكريس كل وجوده لقضية المظلومين، ومن عرض أعلى درجات الضمير في مجال الأفكار، وعلى درجات الشجاعة في مجال العمل، ومن الحفاظ على موقف نقي لا يشوبه أي قدر من التعالي على عامل (عادي)، أو امرأة مغلوبة على أمرها، أو طفل. ألا يبدو أن (اللااخلاقية) في هذه الحالة مجرد اسم مستعار لأخلاقية إنسانية أسمى.

حادثة بناءة

من المناسب أن نقص هنا حادثة، لا تفشل في تصوير الفرق بين أخلاقهم وأخلاقنا، على الرغم من أبعادها المتواضعة. ففي عام 1935 طورت، من خلال رسالة إلى أصدقائي البلجيكيين، فكرة أن محاولة حزب ثوري شاب، أن ينظم اتحادات عمال خاصة به، هي بمثابة الانتحار. إن من

الضروري أن نسعى إلى العمال حيثما وجدوا. ولكن هل يعني هذا أن نبذل الأموال من أجل إقامة جهاز انتهازي؟ لقد أجبت على هذا السؤال بقولي: (طبعاً فلكي نسيطر على الإصلاحيين من الضروري أن نبذل لهم الأعطيات مؤقتاً). ولكن الإصلاحيين لن يسمحوا لنا بالسيطرة عليهم؟ أجبت ذلك قائلاً: (حقاً أن السيطرة تتطلب اتخاذ خطوات تأمرية. فالإصلاحيون هم البوليس السياسي للبرجوازية، داخل الطبقة العاملة. إن علينا أن نتصرف دون إذن منهم، وضد أوامرهم...). وقد استولى البوليس البلجيكي على رسالة خلال غارة حدثت عرضاً، على منزل الرفيق (د) تتعلق -على ما أظن- بتزويد العمال الاسبان بالسلاح. وخلال عدة أيام نشرت الرسالة، وبالطبع لم تتورع صحافة فندر فيلد، ودومان، وسباك، عن شن الهجوم ضد (مكيافيلتي) و(يسوعيتي). ومن ترى هؤلاء الذين يوجهون الاتهامات. إن فندر فيلد، رئيس الأممية الثانية لسنوات عدة، أصبح قبل وقت طويل، خادماً أميناً لرأس المال البلجيكي. ودومان الذي يضخم الاشتراكية بالأخلاقيات مثالية في سلسلة من المجلدات الضخمة، ويتقرب من الدين، اغتتم أول فرصة لخيانة العمال، وأصبح وزيراً برجوازيًا عادياً. وأما قضية سباك فهي أشد طرافة، فقبل عام ونصف كان هذا السيد ينتمي إلى المعارضة اليسارية الاشتراكية، وجاءني إلى فرنسا بحثاً عن نصيحتي حول طرق النضال ضد بيروقراطية فندر فيلد. وقد قدمت نفس الأفكار التي تضمنتها رسالتي فيما بعد، ولكن بعد عام من هذه الزيارة، رفض سباك الأشواك حبا بالزهور. وبعد أن خان رفاقه في المعارضة، أصبح أشد عملاء رأس المال البلجيكي استخفافاً. إن هؤلاء السادة يخنقون كل صوت يرتفع منتقداً في نقابات العمال، وفي حزبهم. ويفسدون ويرشون بطريقة منظمة أشد العمال تقدمية، كما يطردون العمال المنحرفين بنفس الطريقة، وهو يتميزون عن الغيبو فقط بحقيقة كونهم لم يلجأوا بعد لإراقة الدماء. فباعثارهم وطنيين طيبين، يوفرون دماء العمال للحرب الامبريالية المقبلة، ومن الواضح أن على المرء أن يكون شديد الكراهية، أن يكون كسيحاً خلقياً، وأن يكون كافيدياً، بلشفيًا، من أجل أن ينصح العمال الثوريين بالالتزام بتعاليم التآمر في النضال ضد هؤلاء السادة!

إن رسالتي لم تنطو على أي شيء جنائي، من وجهة نظر القوانين البلجيكية. وقد كان من واجب البوليس (الديمقراطي) أن يعيد الرسالة إلى المرسل إليه، مع الاعتذار. وكان من

واجب الحزب الاشتراكي أن يحتج ضد الغارة التي أمثلتها دوافع تتعلق بمصالح الجنرال فرانكو. ولكن السادة الاشتراكيين لم يعترهم الخجل إطلاقاً من استغلال خدمات البوليس الفظة. فبدون ذلك لم يكن ليتاح لهم التمتع بفرصة طيبة لعرض تفوق أخلاقهم مرة أخرى، على لأخلاقىي البلاشفة.

وكل شيء رمزي في هذه الحادثة. فقد صب الديمقراطيون الاشتراكيون في بلجيكا جام غضبهم علي، في الوقت نفسه الذي اعتقلت فيه أنا وزوجتي من قبل أصدقائهم المفكرين في النرويج، لمنعنا من الدفاع عن أنفسنا ضد اتهامات الغيبو. لقد علمت الحكومة النرويجية جيداً أن اتهامات موسكو كانت ملفقة — وقد أكدت هذه الصحيفة الديمقراطية الاشتراكية شبه الرسمية، علانية خلال الأيام الأولى. ولكن موسكو ضغطت على أصحاب السفن وتجار السمك النرويجيين — أن مارتن ترانمايل زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ليس مجرد حجة في الميدان الخلقى، ولكنه رجل فاضل علانية: فهو لا يشرب ولا يدخن ولا يأكل اللحم ولا يستحم بالجليد في الشتاء وهذا لم يمنعه بعد أن قبض علينا بأمر من الغيبو من دعوة عميل الغيبو النرويجي جاكوب فريز — برجوازي بلا شرف وضمير — من الوشاية بي، ولكن هذا يكفي...

إن أخلاق هؤلاء السادة تتألف من الشرائع التقليدية، التي تمثل مصالحهم ورغباتهم ومخاوفهم، وأغلبهم مستعد لرفض القناعات السائدة، والغدر والخيانة باسم طموحه، أو نزواته. والغاية بالنسبة لهم تبرر أية وسيلة في مجال المصالح الشخصية المقدس، ولكنهم يحتاجون إلى شرائع أخلاقية خاصة ومستمرة، ومرنة في الوقت نفسه لهذا السبب بالذات. إنهم يمقتون كل من يفضح أسرارهم المهنية للجماهير. وفي أوقات (السلم) يعبرون عن كراهيتهم بالتهجم بلغة فلسفية. وفي أوقات الصراعات الاجتماعية الحادة، كما هو الأمر في اسبانيا، فإن هؤلاء الأخلاقيين، يقتلون الثوريين جنبا إلى جنب مع الغيبو. ولكي يبررون أنفسهم يكررون عبارة: (التروتسكية والستالينية صنوان).

التواقف Interdependence الديالكتيكي للغاية والوسيلة

إن الوسيلة يمكن أن تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية بدورها بحاجة إلى التبرير. والغاية، من وجهة النظر الماركسية التي تعبر عن المصالح التاريخية للبروليتارية، مبررة إذا ما كانت تؤدي إلى سلطة الإنسان على الطبيعة، وإلغاء سلطة الإنسان على أخيه الإنسان.

(ولكن هل نفهم من هذا أن أي شيء مباح من أجل الوصول إلى هذه الغاية). هكذا يلح الجهلة بالسؤال باستهزاء مفصحين عن عدم فهمهم لشيء. إن المباح، كما نجيبهم، هو ما يؤدي فعلا إلى تحرير الجنس البشري. وما دامت هذه الغاية ممكنة التحقيق بواسطة الثورة، فإن أخلاقية البروليتارية المحررة، ذات طبيعة ثورية بالضرورة. إنها لا تجابه بشكل سافر العقائد الدينية المتحجرة فحسب، وإنما جميع التعاويذ المثالية. وتجابه الشرطة الفلسفية للطبقة الحاكمة، وهي تستنتج قاعدة السلوك من وقوانين تطور المجتمع، أي من الصراع الطبقي بشكل رئيسي، من قانون جميع القوانين.

(ويستمر الأخلاقيون في السؤال بإصرار: وما الفرق؟ هل هذا يعني أن جميع الوسائل مباحة في الصراع الطبقي ضد الرأسماليين: أي الكذب والتلفيق والخيانة والقتل وهكذا) ونجيب على هذا بقولنا: إن الوسائل المباحة والتي لا غنى عنها هي تلك توحد البروليتارية الثورية وتملاً قلبها بعداوة للظلم لا هوادة فيها، وتعلمهم ازدراء الأخلاق الرسمية وطبولها الديمقراطيين، تشبعهم بوعي لرسالتهم التاريخية، ترفع من شجاعتهم وروح التضحية في نضالهم. ومن هذا بالذات يمنع قولنا بأنه ليست جميع الوسائل مباحة. وعندما نقول أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن النتيجة التي تتبع ذلك بالنسبة لنا، هي أن الغاية الثورية العظيمة تطيح بتلك الوسائل التي توقع بين فريق من العمال ضد فريق آخر، أو تحاول أن تجعل الجماهير سعيد، دون مشاركتها، أو تخفض من إيمان الجماهير بنفسها وبتنظيمها، متبدلة ذلك بعبادة القادة.

إن الأخلاقية الثورية ترفض بشكل مبدئي ولا هوادة فيه التذلل من قبل البرجوازية، والخطرسة من جانب الكادحين، أي تلك الخصائص التي رسخ جذورها متعالمو البرجوازية الصغيرة وأخلاقيتها.

إن هذه المقاييس لا تقدم بطبيعة الحال جوابا جاهزا، على السؤال عما هو مباح أو غير مباح، في كل قضية منفصلة. إذ لا يمكن أن توجد أجوبة أوتوماتيكية على هذا النحو. فمشكلات الأخلاقية الثورية متصلة بمشكلات الإستراتيجية الثورية وتكتيكها. إن التجربة الحية للحركة في ظل نظرية واضحة، تقدم الجواب الصحيح على هذه المشكلات.

والمادية الديالكتيكية لا تعرف ازدواج الوسيلة والغاية. فالغاية تتبع بشكل طبيعي من الحركة التاريخية، والوسيلة تابعة عضويا للغاية، والغاية المباشرة تصبح وسيلة لغاية أبعد. إن فردينال لاسال يتحدث على لسان أحد أبطال مسرحية (فرانزفون سيكينجن) قائلا:

(... أرني الهدف
ولكي أرني الطريق إليه أيضا
إنهما لمتصلان بدرجة تجعل كلا منهما
دائم التبدل
وتظهر طرق أخرى وهدف آخر)

إن أبيات لاسال ليست كاملة على الإطلاق. وأساء منها حقيقة أن لاسال نفسه مختلف في سياسته العملية عن التعاليم المشروحة أعلاه. إنه ليكفي أن نتذكر أنه ذهب إلى حد عقد اتفاقيات سرية مع بسمارك! ولكن التوافق الديالكتيكي بين الغاية والوسيلة، معبر عنه بشكل صحيح كليا في الجمل التي أوردتها أعلاه. إن حبوب القمح يجب أن تبذر من أجل سنبله القمح.

هل الإرهاب الفردي مباح أو غير مباح من وجهة نظر (الأخلاق المحضة)؟ إن هذا السؤال لا يهمننا أبدا بشكله المجرد هذا. وتكيل البرجوازية السويسرية المحافظة حتى الآن الثناء على الإرهابي (وليم تل). إن عواطفنا منحازة كليا للإرهابيين الأيرلنديين والروس والبولنديين والهندوس في نضالهم ضد الطغيان السياسي والقومي. وكيروف الطاغية الوقح الذي مات اغتيالاً، لا يثير أية شفقة لدينا، وعلاقتنا بالقاتل تظل محايدة، لأننا لا نعرف الدوافع التي دعت لقتله. فإذا أصبح معلوماً أن نيقولايف قد تصرف كصاحب ضمير انتقم لحقوق العمال التي داسها كيروف بالأقدام، فإن عواطفنا ستكون القاتل كليا. ومع ذلك، فليس السؤال حول الدوافع

الذاتية، وإنما الدوافع الموضوعية، هو الذي يحمل دلالة حاسمة بالنسبة لنا. هل الوسائل المتوفرة قادرة على أن تؤدي بنا إلى الهدف حقاً؟ بالنسبة للإرهابي الفردي تشهد النظرية والتجربة، أن هذه ليست القضية وإنما لنقول للإرهابي: إنه لمن المحال الاستعاضة عن الجماهير، بالحركة الجماهيرية فقط يمكنك أن تجد التعبير عن بطولتك. ومع ذلك فضمن شروط الحرب الأهلية، يكف اغتيال الظالمين فردياً عن أن يكون إرهاباً فردياً. فإذا ما قلنا أن ثوريا ألقى قنبلة على الجنرال فرانكو وأركانها فمزقهم إرباً إرباً، فإن هذا بالكاد أن يثير الغضب الأخلاقي، حتى لدى الخصيان الديمقراطيين. إن تصرف مشابها سيبدو مناسباً كلياً من الناحية السياسية في ظروف حرب أهلية. وعلى هذا، فإن القوانين الأخلاقية المطلقة، يثبت بطلانها حتى عندما تصل المسألة إلى أقصى حد لها: قتل إنسان لإنسان آخر. وإن التقويمات الأخلاقية جنباً إلى جنب مع السياسة، تنبع من الحاجات الداخلية للصراع.

إن تحرير العمال يمكن أن يتم بواسطة العمال أنفسهم. ولذلك لا توجد جريمة أعظم من خداع الجماهير وتصوير الهزائم على أنها انتصارات، والأصدقاء على أنهم أعداء، ورشوة القادة العماليين واختلاق الأساطير، وتلفيق المحاكمات المزيفة، أو بعبارة واحدة، القيام بما يفعله الستالينيون. إن هذه الوسائل يمكن أن تخدم غاية واحدة فقط، ألا هي إطالة أمد سيطرة طغمة أدائها التاريخ، ولكنها لا يمكن أن تسهم في تحرير الجماهير، وهذا هو ما جعل الأممية الرابعة تخوض صراع حياة أو موت ضد الستالينية.

ليست الجماهير معصومة بطبيعة الحال، فتأليه الجماهير غريب عنا. لقد رأيناهم في شروط مختلفة، ومراحل مختلفة، وخلال أضخم الصدمات السياسية. لقد رأينا جوانبهم القوية والضعيفة، ووجد جانبهم القوي -تصميمهم، تضحياتهم، وبطولتهم- تعبيره الأوضح دائماً في أوقات الثورة. وخلال هذه الفترة، قاد البلاشفة الجماهير. وبعد ذلك افتتح فصل تاريخي مختلف، عندما برز الجانب الضعيف من المظلومين إلى المقدمة، بنقص ثقافته وضيق أفقه العالمي. وسرعان ما خاب أمل الجماهير التي أتعبها التوتر، ففقدت الأمل بنفسها ومهدت الطريق للارستقراطية الجديدة. وفي هذه الفترة وجد البلاشفة (التروتسكيين) أنفسهم معزولين عن الجماهير. والواقع أننا مررنا بدورتين تاريخيتين كبيرتين من هذا النوع:

1897-1905، سنوات مد الفيضان، 1907-1913 سنوات
الجزر، 1917-1923 فترة اضطراب لا مثيل لها في
التاريخ، وأخيرا فترة جديدة من الرجعية لم تنته حتى اليوم.
وخلال هذه الأحداث الجسام، تعلم التروتسكيون إيقاع التاريخ،
أي ديالكتيك الصراع الطبقي. كما أنهم تعلموا، كما يبدو،
بدرجة معينة من النجاح كيف يخضعون خططهم وبرامجهم
الذاتية لهذا الإيقاع الموضوعي. لقد تعلموا ألا يسقطوا فريسة
للأس بسبب حقيقة كون قوانين التاريخ لا تعتمد على أذواقهم
الفردية، ولا تخضع لمقاييسهم الخلقية الخاصة بهم. وتعلموا
أن يخضعوا أذواقهم الفردية لقوانين التاريخ. كما تعلموا ألا
يفزعوا أمام أعتى الأعداء، إذا ما كانت قوتهم مناقضة
لحاجات التطور التاريخي. إنهم يعرفون كيف يسبحون ضد
التيار، وهم قانعون قناعة عميقة أن الطوفان التاريخي الجيد
سيحملهم إلى الشاطئ الآخر. ولن يصل الجميع إلى الشاطئ
بل سيغرق الكثيرون. ولكن أن يسهم المرء في تلك الحركة
بعينين مفتوحتين وإرادة شديدة - ذلكم فقط هو الطريق إلى
أعلى درجات الاكتفاء الأخلاقي لدى كائن مفكر.

كويوكان د.ف. 16 شباط/فبراير 1938

**حاشية: كتبت هذه السطور خلال أيام، كان ولدي يصارع
فيها الموت دون علم مني. غنني أقدم لذكراه هذا العمل
الصغير الذي أمل أنه كان سيحوز على موافقته - لقد كان
ليون سيدوف ثوريا حقيقيا يحتقر الفريسيين.**

الخلقيون والمنافقون ضد الماركسية (1)

بائعو صكوك الغفران وحلفاؤهم الاشتراكيون

أو: طائر الكوكو في عش غريب

إن كراس أخلاقهم وأخلاقنا له ميزة واحدة على الأقل: فقد
أرغم بعض الجهلة والمنافقين على الكشف عن أنفسهم كليا.
وأول القصاصات من الصحف الفرنسية والبلجيكية التي
تلقيتها تؤكد ذلك. ولكن أشد التعليقات من نوعها جلاء، المقال
الذي ظهر في صحيفة لأكروا La Croix الفرنسية

الكاثوليكية. إن هؤلاء السادة لديهم نظام خاص بهم، وهم لا يخلون من الدفاع عنه، فهم ينافحون عن الأخلاقية المطلقة، وفوق كل هذا، فهم لا يؤمنون الجزار فرانكو، إنها إرادة الله. وخلف هؤلاء يقف منظم سماوي يجمع أوساخهم وينظفها خلال صحوهم. ولذلك فليس من المستغرب أن يحملوا على أخلاقية الثوريين الذين يأخذون المسؤولية على كواهلهم، واصفين إياها بأنها ليست ذات قيمة. بيد أننا لسنا مهتمين الآن ببائعي صكوك الغفران المحترفين، وإنما بالأخلاقيين الذين ينجحون بالعيش دون الله، بينما يحاولون أن يضعوا أنفسهم مكانه.

إن صحيفة بروكسيل الاشتراكية (لو بوبل Le Peuple) – الشعب- قد نجحت في عدم العثور على شيء في كتابنا الصغير، باستثناء وصفة مجرمة لبناء زنانات سرية من أجل تحقيق أحد أشد الأهداف لأخلاقية، ألا وهو الهزء بكرامة البيروقراطية العمالية البلجيكية والسيطرة على مواردها. وقد يقال بالطبع في معرض الرد على هذا، بأن هذه البيروقراطية ملطخة بحوادث خيانة وغش وخداع لا يحصى (ما علينا إلا أن نستعيد تاريخ «لابور بانك Labor Bank!») وإنها تخنق كل لمعة للفكر الانتقادي في الطبقة العاملة وإن أخلاقيتها العملية ليست متفوقة بأي حال من الأحوال على الكهنوت الكاثوليكي، حليفها السياسي. ولكن المحدودي التعليم فقط هم الذين يذكرون مثل هذه الأشياء غير السارة. ثانياً، يحتفظ جميع هؤلاء السادة مهما كانت خطيئاتهم، يحتفظون بأعلى أسس الأخلاق كاحتياطي لهم. وهذه المسألة يعالجها هنري دومان Henri de Man شخصياً، فيرى أننا نحن البلشفيك لا نستطيع أن نتوقع الحصول على أية صكوك غفران.

وقبل أن ننتقل إلى أخلاقيين آخرين، دعونا نتوقف لحظة عند كراس أصدره الناشر الفرنسيون الذين أصدرنا كتابنا. إن الكراس بطبيعته إما أن يقدم كتاباً أو يصف محتوياته بموضوعية. وأمامنا كراس من نوع مختلف كلياً، واكتفي بإيراد مثال واحد منه: (إن تروتسكي يؤمن بأن حزبه الذي كان في السلطة مرة وهو في المعارضة الآن قد مثل دائماً البروليتاري الحقيقي، ومثل الأخلاقية الحقيقية، ويستنتج من ذلك على سبيل المثال: إن إعدام الرهائن يحمل معنى مختلفاً كلياً يعتمد ما إذا كان الأمر بالإعدام صادراً عن ستالين أو

تروتسكي). إن هذه العبارة المقتطفة كافية تماما لتقويم المعلق الذي يختفي وراء الستار. ومن حق المؤلف الذي لا مرأى فيه أن يشرف على كراس، إلا أن المسألة بالنسبة لهذه الحالة، هي أن المؤلف يقف على الطرف الآخر من المحيط ومن الواضح أن صديقا ما يكسب من النقص في المعلومات لدى الناشر قد تحايل من أجل التسلل إلى عش غريب، وضع فيه بيضته الصغيرة. ياه! إنها لبيضة صغيرة جدا بطبيعة الحال، بيضة عذراء تقريبا. من هو مؤلف هذا الكراس، إنه فكتور سيرج الذي ترجم الكتاب، والذي يعتبر في الوقت نفسه من أشد النقاد له، يستطيع أن يقدم المعلومات. لن أكون مستغربا إذا ما اتضح أن الكراس لم يكتبه فيكتور سيرج بطبيعة الحال، وإنما أحد تلاميذه الذين يقلدون أفكار أستاذهم وطريقته. ولكن ربما كان الأستاذ نفسه، أي فيكتور سيرج هو صديق المؤلف؟

أخلاق الهوتنتوت (2)

لقد استغل سوفارين Souvarine ومناققون آخرون البيان الذي ورد في الكراس، والذي وفر عليهم مؤونة البحث. فإذا ما كان تروتسكي يحتفظ الرهائن فهذا حسن، وإذا ما كان ستالين هو الذي يفعل ذلك فهذا سيء. وبالنسبة لمثل الأخلاق الهوتنتية، ليس من الصعب أن نجد مخرجا للحق النبيل، ومع ذلك، فليس ثمة ما هو أسهل من فضح خواء وتزييف هذا الحق، اعتمادا على هذا المثال الذي سنذكره الآن. لقد أصبح فيكتور سيرج علانية عضوا في حزب P.O.U.M وهو حزب كتالوني Catalan—من مقاطعة كتالونيا في اسبانيا. له قوات ميليشيا خاصة به، كانت في المقدمة خلال الحرب الأهلية الاسبانية. وفي الجبهة، كما هو معروف، يطلق الناس النار ويقتلون، ولذلك فقد يقال: (إن القتل بالنسبة لفيكتور سيرج يأخذ معنى مختلفا كليا، يعتمد على ما إذا كان الأمر قد أصدره الجنرال فرانكو أو زعماء أو زعماء حزب فيكتور سيرج). فإذا ما حاول أخلاقينا أن نفكر بمعنى أعماله، قبل أن يحاول إصدار التعليمات للآخرين، فإن من المحتمل أن يقول ما يلي: ولكن العمال الاسبان قاتلوا لتحرير الشعب، بينما قاتلت عصابات فرانكو لاستبعاده! إن سيرج لن يكون قادرا على ابتكار جواب مختلف. وبكلمات أخرى، فإن عليه أن يكرر حجة الهوتنتوت (3) المتعلقة بتروتسكي والرهائن.

الرهائن مرة أخرى

ومهما يكن من أمر، لا بل من المحتمل أن أخلاقيينا سيرفضون الحديث بصراحة وسيتيهون على غير هدى: (إن القتل في الجبهة شيء وأن تطلق النار على الرهائن شيء آخر!). إن هذه الحجة، كما سنثبت عما قريب، حجة سخيفة. ولكن دعونا نتوقف لبرهة على الأرض التي اختارها خصمنا. إن نظام الرهائن، كما يقال، لأخلاقي في حد ذاته. حسن، هذا ما نريد أن نعرفه، ولكن هذا النظام قد اتبع في جميع الحروب الأهلية في التاريخ القديم والحديث. ومن الواضح أنه ينبع من طبيعة الحرب الأهلية نفسها. ومن هذا المنطلق، من الممكن أن نستنتج نتيجة واحدة فقط، ونعني بذلك أن طبيعة الحرب الأهلية نفسها لأخلاقية. ذلكم هو منطلق صحيفة لأكروا التي تعتقد أن من الضروري طاعة السلطة السائدة، بأن السلطة من عند الله. وماذا عن فيكتور سيرج؟ إنه لا يحمل وجهة نظر معتبرة. فأن يلقي المرء بيضة صغيرة في عش صغير شيء، وأن يحدد المرء موقعه بالنسبة لمشكلات تاريخية معقدة شيء آخر. وإنني لأعترف بأن أولئك الذين لديهم أخلاقية متعالية، من أمثال أزانا Azana وكاباليرو Caballero ونيغرين Negrin وشركاه، كانوا ضد أخذ رهائن من المعسكر الفاشي. فبالنسبة للجانبين لديك برجوازيون مقيدون بقيود الأسرة والقيود المادية، ومقتنعون بأنه حتى في حال الهزيمة، فإنهم لن ينقذوا أنفسهم فقط، وإنما سيحتفظون بوجبات غذائهم من اللحم. لقد كانوا على حق بطريقتهم. إلا أن الفاشيين أخذوا رهائن من البرجوازيين الفاشيين، لأنهم كانوا يعلمون القدر من الذل الذي تنطوي عليه الهزيمة بالنسبة لهم ولإخوتهم في الطبقة، حتى لو كانت هذه الهزيمة جزئية ومؤقتة.

ولا يستطيع فيكتور سيرج نفسه أن يصرح تماما بما يريد: هل يظهر الحرب الأهلية من نظام الرهائن، أم يظهر التاريخ البشري من الحرب الأهلية. إن الأخلاقي البرجوازي الصغير يعتقد أنه غير قادر على معالجة الظواهر بالنسبة لعلاقتها الداخلية. إن مسألة الرهائن إذا ما وضعنا جانبا بشكل مزيف، تشكل بالنسبة له مشكلة خلقية خاصة، مستقلة عن تلك الشروط العامة، التي تزيد من حدة النزاعات المسلحة بين الطبقات. إن الحرب الأهلية هي التعبير الأسمى عن الصراع الطبقي، فأن نحاول أن نخضعها لمقاييس مجردة، فإن هذا يعني في الواقع تجريد العمال من أسلحتهم، وهم يجابهون عدوا مدججا بالسلاح. إن الأخلاقي البرجوازي هو الأخ

الأصغر للبرجوازي المسالم، الذي يريد (أنسنة) الحرب عن طريق منع استخدام الغازات السامة، وقصف المدن غير المحصنة الخ... إن مثل هذه المناهج، من الناحية السياسية، إنما تخدم في أبعاد أفكار الناس عن الثورة، كطريق وحيدة لوضع حد للحرب.

فزع الرأي العام البرجوازي

إن الأخلاقي المحاصر بالتناقضات، ربما يحاول أن يناقش بقوله أن صراعا مكشوفاً وواعياً بين المعسكرين شيء، وأن احتجازاً غير المشتركين في الصراع شيء آخر. وهذه الحجة مع ذلك هي مجرد حرف غبي وممطوط للموضوع. ففي معسكر فرانكو حارب عشرات الآلاف الذين جندوا بالقوة، وقد أطلقت جيوش الجمهوريين على هؤلاء الأسرى التعساء، أسرى جنرال رجعي. فهل كان هذا أخلاقياً أم غير أخلاقياً؟ وأكثر من ذلك فإن الحرب الحديثة، بما فيها من مدفعية بعيدة المدى، وقنابل غاز، وطيران، وتخريب، ومجاعات وحرائق وأوبئة، تعني بالضرورة فقدان أرواح مئات الآلاف والملايين من الكهول والأطفال الذين لم يشتركوا في الصراع مباشرة. إن الذين يؤسرون هم مرتبطون بقيود الطبقة والتضامن العائلي مع معسكر من معسكرين على الأقل، أو مع زعماء هذا المعسكر. وأن الاختيار الواعي ممكن لدى أخذ الرهائن، إن قذيفة من بندقية أو طائرة، يمكن أن تدمر العدو والصديق على حد سواء، أو الآباء والأطفال. لماذا إذن يستثنى أخلاقياً مسألة الرهائن ويغلقون أعينهم على مضمون الحرب الأهلية كلها؟ لأنهم ليسوا شجعاناً بما فيه الكفاية، وكيساريين فإنهم يخشون من تدمير الجسور مع الرأي العام الرسمي وبإدانة نظام الرهائن يشعرون أن لديهم أصدقاء طبيين ضد البلاشفة، فهم يمارسون صمتاً جباناً إزاء إسبانيا. وسيستمر فيكتور سيرج بالاحتجاج على حقيقة أن العمال الإسبان والفوضويين وأعضاء حزب P.O.U.M قد أخذوا رهائن، سيحتج على ذلك بعد عشرين عاماً.

الشرعية الخلقية للحرب الأهلية

وإلى نفس الفئة تنتمي مجموعة أخرى من اكتشافات فيكتور سيرج، وأقصد بها أن انحطاط البلاشفة يبدأ من اللحظة التي أعطي فيها الشيكا (4) حتى تقرير مصير الشعب من وراء

الأبواب المقفلة. إن سيرج يعبث بفكرة الثورة ويكتب القصائد عنها، غلا أنه عاجز عن فهمها كما هي.

إن المحاكمات العامة ممكنة فقط في ظروف نظام مستقر. والحرب الأهلية هي شرط عدم الاستقرار الأقصى للمجتمع والدولة. وكما أنه من المستحيل أن ننشر خطط الدولة في الصحف، كذلك فإن من المستحيل أن نكشف بمحاكمات عامة عن شروط وظروف المؤامرات، ذلك أن هذه المؤامرة تتصل اتصالاً وثيقاً بمجرى الحرب الأهلية. ولا شك أن المحاكمات السرية قد زادت كثيراً من احتمال وقوع الأخطاء. وهذا يدل فقط على أن من الصعب في ظروف الحرب الأهلية ممارسة العدالة غير المتحيزة.

إننا نقترح أن يعين فيكتور سيرج رئيساً للجنة تتألف من مارسيو بيفر وسوفارين ووالدو فرانك وماكس ايستمان ومجدولين باز وآخرين لوضع شريعة أخلاقية للحرب الأهلية، والشخصية العامة لهذه اللجنة واضحة مقدماً. الطرفان يتعهدان بعدم أخذ الأسرى، والمحاكمات العامة تظل دائرة، ومن أجل أن تتم هذه المحاكمات على ما يرام، فإن الحرية الكاملة للصحافة محفوظة خلال الحرب الأهلية، وقصف المدن ممنوع كلياً باعتباره يرتبط بالعدالة وحرية الصحافة وعدم خرق حرمة الأفراد. ولأسباب أخرى مشابهة يمنع استخدام المدفعية. وكما هو الأمر بالنسبة للبنادق، فإن القنابل اليدوية والحرايب تؤثر تأثيراً مشووماً على المخلوقات البشرية، بقدر ما تؤثر على الديمقراطية بشكل عام. إن استخدام الأسلحة النارية في الحرب الأهلية ممنوع كلياً.

شريعة رائعة! نص عظيم لخطابة فيكتور سيرج ومجدولين باز! ومع ذلك، فطالما أن هذه الشريعة تظل غير مقبولة كقاعدة للسلوك من قبل جميع المضطهدين والمضطهدين، فإن الطبقات المتخاصمة ستسعى لنوال النصر بأية وسيلة، بينما يستمر الأخلاقيون البرجوازيين بالتساؤل بالضياع والارتباك بين المعسكرين، وهم يتعاطفون ذاتياً مع المضطهدين – لا شك في ذلك. ولكنهم يظلون من الناحية الموضوعية أسرى أخلاقية الطبقة الحاكمة، ويسعون لفرضها على المضطهدين، بدلاً من مساعدتهم على إتقان أخلاقية العصيان.

الجماهير لا علاقة لها بذلك مطلقاً!

لقد أوضح فيكتور سيرج عرضا الأسباب التي أدت إلى انهيار حزب البلاشفة، وهي: المركزية الشديدة، وعدم الثقة بالنضال الإيديولوجي وانعدام الروح المحبة للحرية. فمزيدا من الثقة بالجماهير، مزيدا من الحرية! كل ذلك خارج الزمان والمكان. غير أن الجماهير ليست متشابهة على الإطلاق، فهناك جماهير ثورية، وجماهير سلبية، وجماهير رجعية. والجماهير نفسها تستلهم، خلال أوقات مختلفة، أمزجة وأهدافا مختلفة. ولهذا السبب نفسه يبدو وجود منظمة مركزية للطليعة أمر لا غنى عنه. فالحزب الواحد فقط والذي يستخدم السلطة التي فاز بها، قادر على التغلب على ذبذبة الجماهير. فإن نحيط الجماهير بهالات من القداسة، وأن نخفض برنامجنا إلى مستوى (الديمقراطية) غير الممدودة، معناه أن نحل أنفسنا في الطبقة كما هي، وأن نتحول من طليعة إلى مؤخرة، وبالتالي أن نتخلى عن مهمات الثورة. ومن وجهة أخرى، فإذا ما كانت ديكتاتورية البروليتارية تعني أي شيء على الإطلاق، فإنها تعني عندئذ أن طليعة الطبقة مسلحة بموارد الدولة من أجل درء الأخطار، بما في ذلك الأخطار التي تنطلق من الصفوف الخلفية للبروليتارية نفسها. كل ذلك أساسي وكل ذلك أوضحته تجربة روسيا وأكدته تجربة إسبانيا.

إلا أن السر كله هو أن مطالبة فيكتور سيرج بالحرية (للجماهير) تعني في الواقع الحرية لنفسه ولرفقائه، الحرية من كل سيطرة ونظام، والحرية من النقد إذا أمكن ذلك. إن (الجماهير) لا علاقة لها بذلك مطلقا، وعندما يتأرجح ديمقراطيونا من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين زارعين الشك والاضطراب، يتخيل أن ذلك يعني تحقق حرية الفكر. ولكن عندما نقوم منطلقين من منطلق ماركسي، فإن الحكم على ذبذبة مثقف برجوازي صغير مصاب بخيبة الأمل، يبدو بالنسبة له بمثابة اعتداء على فرديته، ثم ما يليث أن يدخل في تحالف مع جميع المشوشين لشن حملة صليبية ضد طغياننا وتعصبنا المذهبي.

إن الديمقراطية الداخلية لحزب ثوري ليست هدفا في حد ذاتها. فمن الواجب أن تدعم وترتبط عن طريق المركزية. فبالنسبة للماركسي كان السؤال دائما: الديمقراطية لأي شيء؟ ولأي برنامج؟ إن إطار البرنامج هو إطار الديمقراطية في الوقت نفسه. لقد طالب فيكتور سيرج من الأممية الرابعة أن

تعطي حرية العمل لجميع المشوشين والمتعصبين المذهبيين ومركزيي P.O.U.M من أمثال فيريكن Vereecken ومارسيو بيفر Marceau Pivert وللبيروقراطيين المحافظين من أمثال سنيفلييت Sneevliet أو للمغامرين من أمثال ر. مولينييه R.Molinier. ومن جهة أخرى ساعد فيكتور سيرج بشكل منظم، ساعد المنظمات المركزية على أن تطرد من بين صفوفها أنصار الأممية الرابعة. إننا منسجمون كليا مع الديمقراطية، فهي مسالمة ومطبعة، وتميل نحو اليمين. وفي الوقت نفسه فإنها ضرورية وحقوقية ومخادعة باتجاه اليسار -إنها تمثل نظام الدفاع عن النفس لدى مركزية البرجوازية الصغيرة.

الصراع ضد الماركسية

إذا كان موقف فيكتور سيرج من المشكلات النظرية، كان جادا، فإنه سيُشعر بالحرَج من الظهور في المقدمة كمبتكر أفكار، وأن يعود بنا إلى برنشتاين Bernstein وستروف Struve وجميع المراجعين في القرن الماضي الذين حاولوا إصاق الكنطية بالماركسية، أو بكلمات أخرى، إخضاع النضال الطبقي للبروليتارية إلى مبادئ ترتفع عنه. وكما فعل كُنط نفسه، اعتبروا «الأمر المطلق» (فكرة الواجب) مقياسا مطلقا للأخلاق يسري على الجميع. والواقع أن المسألة (واجب) بالنسبة لمجتمع برجوازي. وقد كان لدى كل من برنشتاين وستروف وفورلاندر Vorlander، كان لهم موقف من النظرية على طريقتهم الخاصة. فقد دعوا علانية للعودة إلى كُنط. إن فيكتور سيرج ورفاقه لا يشعرون بأبسط المسؤوليات تجاه الفكر العلمي، إنهم يقصرون أنفسهم على الخيالات والاستعارات، وعلى التعميمات الأدبية في أفضل الأحوال. ومع هذا، فإذا ما امتحنت أفكارهم فإنهم يبدون وقد انضموا لقضية قديمة، يثبت بطلانها منذ زمن طويل: إخضاع الماركسية بالكنطية، شل الثورة الاشتراكية بواسطة (المقاييس المطلقة)، التي تمثل في الواقع التعميمات الفلسفية للمصالح البرجوازية - وهذه ليست برجوازية يومنا هذا، وإنما برجوازية فترة التجارة الحرة والديمقراطية. إن البرجوازية الامبريالية تلتزم بهذه المقاييس بقدر أقل من ذلك الذي التزمت به حقوقها الليبرالية، وهي تنظر بعطف إلى محاولات المبشرين البرجوازيين الصغار، بإشاعة الارتباك والفوضى والتذبذب بين صفوف البروليتارية الثورية. إن الهدف

الرئيسي لهتلر والليبراليين والديمقراطيين هو التهجم على البلشفية، في وقت تهدد فيه شريعتها التاريخية بأن تصبح بشكل مطلق للجماهير البلشفية، الماركسية - ذلكم العدو!

عندما زيف (الأخ) فيكتور باش Victor Basch (5) الكاهن الأعظم للأخلاق الديمقراطية بمساعدة (أخيه) روزنمارك Rosenmmark وذلك دفاعا عن محاكمات موسكو، فضح علانية. وعندما أُدين بتهمة التزوير، دق على صدره وصاح: (هل أنا متحيز إذن؟ لقد استنكرت دائما إرهاب لينين وتروتسكي). لقد فضح باش الدافع الداخلي لأخلاقي الديمقراطية، فبعضهم قد يصمت عن محاكمات موسكو، والبعض الآخر قد يهاجم المحاكمات، وهناك من يدافع عنها. إلا أن اهتمامهم الرئيسي ينصب على استخدام المحاكمات لإدانة (أخلاقية) لينين وتروتسكي، أي الطرق التي تلجأ إليها الثورة البروليتارية. وفي هذا المجال يبدو الجميع أشقاء.

لقد ذكر في الكراس المليء بالفضائح، والذي نظرنا فيه آنفا، أنني (أؤسس نفسي على لينين)، وهذه العبارة غير المحدودة، والتي ترددت في منشورات أخرى، يمكن أن تعني أنني طورت أسس لينين النظرية. ولكن ما أعلمه هو أن لينين لم يكتب عن الأخلاق. لقد تمنى فيكتور سيرج في الواقع أن يقول شيئا مختلفا كليا، وأعني بذلك أن أفكاري اللاأخلاقية هي تعميم لسلوك لينين (اللاأخلاقي) وهو يحاول الطعن بشخصية لينين، عن طريق استخدام أحكامي، والطعن بأحكامي عن طريق استخدام شخصية لينين. إنه ببساطة يدخل السرور على الرجعية التي تعادي البلشفية والماركسية بشكل عام.

سوفارين المنافق

إن بطل السلم السابق، والشيوعي السابق، والتروتسكي السابق، والشيوعي الديمقراطي السابق، والماركسي السابق... لا بل سوفارين السابق يحمل على الثورة البروليتارية والثوريين بقدر من الصفاقة، يعظم كلما قلت معرفته لما يريد. إن هذا الرجل يحب ويعرف كيف يجمع المقتطفات والوثائق، والفواصل، والأقواس، وكيف يرتب الملفات. وأكثر من ذلك فهو يعرف كيف يمسك بالقلم. ولقد تمنى منذ البداية أن هذا المتاع سوف يكفيه طيلة حياته، إلا أنه سرعان ما اضطر إلى إقناع نفسه، بأنه يحتاج بالإضافة إلى ذلك، إلى القدرة على

التفكير. إن كتابه عن ستالين، على الرغم من توفر المقتطفات والحقائق الهامة، ما هو إلا شهادة ذاتية على فقره. إن سوفارين لا يفهم ما هي الثورة ولا الثورة المضادة، إنه يطبق على العملية التاريخية مقياس معقل صغير، تورقه دائماً الإنسانية الخاطئة. والتناقض بن روحه الانتقادية وعجزه على الخلق يستهلكه وكأنه الأسيد. ومن هنا يبدو نزقه وبرمه الدائم، وفقدانه للأمانة المبدئية في تقويم الأفكار والبشر والحوادث، بينما يغطي ذلك كله بإضفاء ستار أخلاقي جاف. وكما هو الأمر بالنسبة لجميع الكارهين للبشر والكلبيين، فإن سوفارين منجذب عضوياً باتجاه الرجعية.

هل انشق سوفارين علانية عن الماركسية؟ إننا لم نسمع عن ذلك، إنه يفضل المواردية والمراوغة، فهذا هو عنصره الأساسي. لقد كتب في مراجعته لكراسي قائلاً: (إن تروتسكي يمتطي مرة أخرى حصان الصراع الطبقي الذي يستهويه). وبالنسبة لماركسي أمس، فإن الصراع الطبقي هو: (حصان تروتسكي). إنه ليس بالأمر الذي يدعو للدهشة أن سوفارين نفسه فضل أن يتخطى كلب الأخلاق الأزلية الميت، وهو يعارض الفكرة الماركسية القائلة بوجود (إحساس بالعدالة دونما اهتمام بالفوارق الطبقيّة). إنه لما يحمل العزاء أن نعلم أن مجتمعنا قائم على (الإحساس بالعدالة)، أن سوفارين سيصل باكتشافه إلى مدى أبعد بلا شك في الحرب القادمة، سيصل باكتشافه إلى الجنود في الخنادق، وعند ذلك يستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع مشلولي الحرب الأخيرة، والعاطلين عن العمل، والأطفال الذين تخلى عنهم ذوهم، والعاشرات. إننا نعتزف مقدماً أنه إذا ما تعرض للأذى فيما هو ملتزم على هذا النحو، فإن (إحساسنا بالعدالة) لن ينحاز إلى جانبه.

إن الملاحظات الانتقادية لهذا المدافع عن العدالة البرجوازية الفاقد للحياء، (دونما اهتمام بالفوارق الطبقيّة) تعتمد كلياً على الكراس الذي استلهمه من فيكتور سيرج. وهذا الأخير في كل محاولاته للتنظير، لا يذهب إلى أبعد من الاستعارة الهجينة من سوفارين، الذي يمتلك مع ذلك المزية التالية: أنه يتفوه بما لم يجرؤ سيرج على التفوه به بعد.

يكتب سوفارين بلهجة تتصنع الاستياء – لا يوجد شيء من الأصالة فيه- قائلاً أنه بقدر ما يدين تروتسكي أخلاقية الديمقراطيين والإصلاحيين والستالينيين والفوضويين، فإن

هذا يعني أن ممثل الأخلاقية الوحيد هو (حزب تروتسكي). وما دام حزبه غير موجود، فإن رمز الأخلاق، في التحليل الأخير هو تروتسكي نفسه. كيف بوسع المرء أن يتصنع الابتسام إزاء هذا؟ إن من الواضح أن سوفارين يتخيل أنه قادر على التمييز بين ما هو موجود، وبين ما هو ليس موجودا. إنها لمسألة بسيطة جدا طالما أنها مسألة بيضة مخفوقة، أو زوج من الحملات. إلا أن مثل هذا التمييز بالنسبة لمقياس العملية التاريخية، يتميز من الوضوح من أنه يقع على رأس سوفارين. إن (ما هو موجود) يخلق أو يموت، يتطور أو يتفتت، وما هو موجود يمكن فهمه من قبله فقط باعتباره يفهم اتجاهاته الداخلية.

إن عدد الناس الذين تسنموا مركزا ثوريا لدى اندلاع الحرب الأخيرة، يمكن أن يعدوا على أصابع اليد الواحدة. لقد كان حقل السياسة الرسمية كله مفعما تقريبا بظلال مختلفة من الشوفينية. وقد بدا لايبكنيشت Liebknecht ولوكسمبورغ Luxemburg ولينين أفرادا عاجزين ومعزولين، ولكن هل هناك أي شك في أن أخلاقيتهم كانت تفوق الأخلاقية الحيوانية (للحلف المقدس). إن سياسة لايبكنيشت الثورية، لم تكن (فردية) إطلاقا كما بدا آنذاك للجاهل الوطني العادي. وعلى العكس من ذلك، فقد عكس لايبكنيشت، لايبكنيشت وحده التيارات الأساسية الخفية لدى الجماهير، ومجرى الأحداث اللاحقة أكد ذلك كليا. ألا نخشى اليوم القطيعة الكاملة مع الرأي العام الرسمي من أجل أن نكسب في الغد حق التعبير عن أفكار ومشاعر الجماهير الثائرة، هو الشكل الخاص للوجود الذي يختلف عن الوجود التجريبي لتقليديين البرجوازيين الصغار. إن جميع أحزاب المجتمع الرأسمالي، وجميع أخلاقييه ومناققيه سيتلاشون تحت وقع الكارثة. والحزب الوحيد الذي سينجو هو حزب الثورة العالمية الاشتراكية، على الرغم من أنه يبدو موجودا اليوم بالنسبة للمعلقين القصيري النظر، كما بدا لهم خلال الحرب الأخيرة، عن حزب لينين و لايبكنيشت غير موجود.

ثوريون وحاملو وباء

كتب انجلز مرة أنه وماركس ظلا طيلة حياتهما مع القلة وشعرا بالسعادة بذلك. إن الفترات التي ترتفع فيها الطبقات المضطهدة في عداد إلى مستوى المهمات العامة للثورة، تمثل

أندر الاستثناءات في التاريخ، ذلك أن هزائم المضطهدين أكثر عددا من انتصاراتهم. وبعد كل هزيمة تأتي فترة طويلة من الرجعية تلقي بالثوريين إلى الوراء في حالة من الانعزال الحاد. وأشبه الثوريين (فرسان الساعة) كما دعاهم شاعر روسي، أما أن يخونوا قضية المضطهدين علانية في مثل هذه الفترات، أو يبدأون البحث عن معادلة للخلاص تسمح لهم بتجنب القطيعة مع أي من المعسكرين. إنه لمن غير الممكن في زماننا أن نعثر على معادلة مسالمة في مجال الاقتصاد السياسي أو علم الاجتماع، والتناقضات الطبقة قد أطاحت إلى الأبد بمعادلة (الانسجام) التي يطرحها الإصلاحيون الليبراليون والديمقراطيون. ويظل هناك مجال الأخلاق الدينية والمتعالية. لقد حاول (الثوريون الاجتماعيون) الروس إنقاذ الديمقراطية بالتحالف مع الكنيسة. إن مارسيو بيفر يستبدل الكنيسة بالأخوة الماسونية. ومن الواضح أن فيكتور سيرج لم ينضم إلى هذه الكتلة، إلا أنه لم يجد صعوبة في العثور على لغة مشتركة مع بيفر ضد الماركسية.

هناك طبقتان تقرران مصير المجتمع الحديث: الطبقة البرجوازية والطبقة البروليتارية. وآخر ملجأ للبرجوازية هو الفاشية التي تستبدل المقاييس الاجتماعية والتاريخية بمستويات حيوانية لكي تعفي نفسها من كل قيد في صراعها من أجل الملكية الرأسمالية. ويمكن إنقاذ الحضارة عن طريق الثورة الاشتراكية فقط. ومن أجل تحقيق الانقلاب المنشود تحتاج البروليتارية إلى كل قوتها وعزمها ومضائها وعنفوانها وقسوتها. وفوق كل هذا، يجب أن تكون متحررة كلياً من خرافات الدين، والديمقراطية والأخلاقية المتعالية يجب أن تتحرر من القيود الروحية التي خلفها العدو لترويضها واستعبادها، كلما يمهّد الطريق كلية للإطاحة بوحشية الامبريالية الأخلاقية، ولا شيء غير ذلك. سلامة الثورة فقط: ذلكم هو القانون الأسمى.

إن الفهم الواضح للعلاقة الداخلية بين طبقتين أساسيتين – البرجوازية والبروليتارية في فترة صراعهما المميت – يوضح لنا المعنى الموضوعي لدور الأخلاقيين البرجوازيين الصغار. إن سمعتهم الغالبة هي العجز: العجز الاجتماعي بسبب التدهور الاقتصادي للبرجوازية الصغيرة، العجز الإيديولوجي بسبب خوف البرجوازية الصغيرة من إثارة الصراع الطبقي المرعب. ومن هنا يبدو حرص البرجوازية

الصغيرة المتعلمة والجاهلة كل كبح جماح الصراع الطبقي. فإذا ما كان البرجوازي عاجزا عن النجاح في مسعاه باستخدام الأخلاق المطلقة، فإنه يلقي بنفسه في أحضان الفاشية التي تكبح الصراع الطبقي بواسطة الأساطير وفأس الجلاد. إن أخلاقية فيكتور سيرج وزملائه هي جسر العودة من الثورة إلى الورا. وقد أصبح سوفارين على الطرف الآخر من الجسر فعلا، وأية تنازلات لهذه الميول تمثل بداية الاستسلام للرجعية. فلندع حاملي الوباء هؤلاء يستخلصون قواعد الأخلاق من هتلر وموسوليني وتشمبرلين ودالاديه. أما بالنسبة لنا فإن منهاج الثورة البروليتارية يكفي.

كويوكان د.ف 9 حزيران/يونيو 1939.

الوسائل والغايات (1)

جون ديوي

إن علاقة الوسائل بالغايات قد كانت لوقت طويل موضوعا رئيسيا في الأخلاق، كما أنها كانت موضوعا ملما في النظرية السياسية وتطبيقها. وبالنسبة للناحية الأخيرة تركزت المناقشة حول التطورات الأخيرة في الاتحاد السوفيتي. وقد دافع عن الاتجاه الستاليني عدد من المؤمنين به البلدان الأخرى، على أساس أن عمليات التطهير والاضطهادات كانت ضرورية، حتى مع وجود قدر معين من التلفيق، وذلك من أجل الحفاظ على النظام الاشتراكي في تلك البلاد. وقد استخدم آخرون الإجراءات التي قامت بها البيروقراطية الستالينية لإدانة السياسة الماركسية على أساس أنها تؤدي إلى ألوان من التطرف، على غرار ما حدث في الاتحاد السوفيتي، وذلك لأن الماركسية تعتقد أن الغاية تبرر الوسيلة. وقد آمن بعض أولئك النقاد أنه ما دام تروتسكي ماركسيا أيضا، فإنه ملتزم بالسياسة نفسها، وبالتالي لو كان تروتسكي في الحكم، فإنه كان سيشعر بأنه مضطر لاستعمال أية وسيلة تبدو ضرورية لتحقيق الغاية المتعلقة بدكتاتورية البروليتارية.

وقد كان للمناقشة نتيجة نظرية مفيدة واحدة على الأقل، فقد كشف لأول مرة عن مناقشة جلييلة لماركسي رصين حول علاقة الوسائل بالغايات في العمل الاجتماعي (2). وبناء على الدعوة الكريمة لأحد المشرفين على هذه المجلة، أريد مناقشة

هذه المسألة على ضوء مناقشة تروتسكي لتوافق Interdependence الوسائل والغايات. والقسم الأعظم من مطلع هذا المقال لا يدخل بالتالي ضمن مناقشتي، هذا على الرغم من أنني أستطيع أن أقول معتمدا على برهان «وأنت أيضا يا بروتوس» (التي يثيرها العنوان)، إن تروتسكي لم يجد كبير عناء في الإيضاح بأن بعض نقاده قد تعرفوا بالطريقة نفسها التي ينسبوننها إليه. وما دام تروتسكي يوضح أيضا أن المركز البديل الوحيد لفكرة الغاية تبرر الوسيلة، هي شكل من أشكال الأخلاق المطلقة يعتمد على التحرر من الضمير، أو الحس الخلقى، أو بعض أنواع الحقائق الخالدة. وأرغب بالقول أنني أكتب منطلقا من كوني أرفض جميع هذه العقائد بنفس الدرجة التي يكرهاها بها تروتسكي نفسه. وإنني أعتقد بأن الغاية من ناحية التسلل تقدم الأساس الوحيد للأفكار الخلقية والعمل، وبالتالي فهي تقدم التبرير الوحيد الذي يمكن إيجاده للوسائل المستخدمة.

والنقطة التي أقترح معالجتها هي تلك التي أثرت في نهاية مناقشة السيد تروتسكي في القسم المعنون بـ(التوافق الديالكتيكي للغاية والوسيلة). إن البيان التالي أساسي: (إن الوسيلة يمكن أن تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية بدورها بحاجة إلى التبرير. والغاية من وجهة النظر الماركسية التي تعبر عن المصالح التاريخية للبروليتارية، مبررة إذا ما كانت تؤدي إلى سلطة الإنسان على الطبيعة، وإلغاء سلطة الإنسان على أخيه الإنسان). وهذه الزيادة في سلطة الإنسان على الطبيعة، يرافقها إلغاء سلطة الإنسان على الإنسان، تبدو الغاية، وأعني بذلك الغاية التي لا تحتاج إلى أن تبرر في حد ذاتها، وإنما هي تبرير الغايات التي بدورها وسائل لها. ويمكن أن نضيف أيضا أن آخرين غير الماركسيين قد يقبلون بمعادلة الغاية هذه ويعتبرون أنها تعبر عن المصالح الخلقية للمجتمع—إذا لم نقل المصالح التاريخية—وليس مصالح البروليتارية فقط.

إلا أن من الهام بالنسبة لهدفي الآن أن نلاحظ بأن كلمة (غاية) استخدمت هنا لتغطي شيئين: الغاية المبررة الأخيرة، والغايات التي هي في حد ذاتها وسائل لهذه الغاية الأخيرة. ذلك أنه في الوقت الذي لم يتضح فيه لعدد كاف من الكلمات أن بعض الغايات ليست سوى وسائل، فإن هذا الاقتراح متضمن بالطبع في البيان القائل: (إن بعض الغايات تؤدي إلى

زيادة سلطة الإنسان على الطبيعة الخ). ويمضي تروتسكي ليوضح بأن المبدأ القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة لا يعني أن كل وسيلة مباحة (إن ما هو مباح، هكذا نجيب، هو ما يؤدي فعلا إلى تحرير الجنس البشري).

إذا ما التزمنا بهذا الرأي الأخير وقمنا بتمحيصه، فسيكون منسجما مع المبدأ الشهير لتوافق الوسيلة والغاية. وهذا يؤدي إلى قيامنا بتدقيق الوسائل التي استخدمت لكي نثبت ما ستكون عليه نتائجها الموضوعية، بالقدر الذي يكون فيه ذلك ممكنا، من الناحية الإنسانية لنوضح أنها تؤدي فعلا إلى تحرير الجنس البشري. عند هذه النقطة يصبح المغزى المزدوج للغاية هاما. فطالما أنها تعني النتائج التي جرى التوصل إليها فعلا، فإن من الواضح اعتمادها على الوسائل المستخدمة، بينما نعتمد الإجراءات التي تعتبر بمثابة وسائل، على الغاية، بمعنى أنها يجب أن ينظر إليها ويحكم عليها على أساس نتائجها الموضوعية مباشرة. وعلى هذا الأساس، فإن الغاية الموضوعية نصب أعيننا تمثل، أو هي في حد ذاتها فكرة النتائج النهائية، في حال كون الفكرة قد تشكلت على أساس الوسائل التي تعتبر أقرب الوسائل لتحقيق الغاية. وعلى ذلك فالغاية التي هي في حد ذاتها وسيلة لتوجيه العمل، تماما كما أن فكرة إنسان ما عن الصحة التي يريد اكتسابها، أو البيت الذي يريد بناءه، ليست مطابقة للغاية بمعنى النتائج المباشرة، ولكنها وسيلة لتوجيه العمل من أجل تحقيق تلك الغاية.

وأما السبب الذي أعطى مقياس (والتطبيق المنبثق عنه) الغاية تبرر الوسيلة اسما سيئا، هو أن الغاية التي هي نصب أعيننا، الغاية التي نؤمن بها (ونعتنقها ربما بإخلاص) تبرر استخدام وسائل معينة، وبذلك تبرر أنه ليس من الضروري أن نمحص ما ستكون عليه النتائج المباشرة لاستخدام الوسائل الممتازة. وقد يؤمن فرد ما بإخلاص أن بعض الوسائل ستؤدي فعلا إلى الغاية المتوخاة والمرغوب فيها. غير أن المسألة الحقيقية ليست مسألة اعتقاد شخصي، وإنما مسألة الأسس الموضوعية التي يستند عليها هذا الاعتقاد، وأعني بذلك النتائج التي ستتسبب عنها مباشرة. وهكذا فعندما يقول السيد تروتسكي أن (المادية الديالكتيكية لا تعرف ثنائية بين الوسيلة والغاية) فإن التفسير الطبيعي لذلك هو أنه يدعو لاستخدام الوسائل التي يمكن أن يبدو من طبيعتها أنها تؤدي إلى الجنس البشري كنتيجة موضوعية.

ومن هنا فإن المرء ليتوقع أن يوجد مع فكرة تحرير الجنس البشري كغاية، موضوعية نصب أعيننا، سيكون هناك تمحيص لجميع الوسائل التي يمكن أن تحقق هذه الغاية، دونما أفكار مسبقة عما يجب أن تكون عليه، وأن أية وسيلة مقترحة ستوزن ويحكم عليها حسب النتائج التي يحتمل أن تؤدي إليها.

ولكن هذا ليس هو السبيل الذي اتبعه تروتسكي في مناقشته. فهو يقول: (إن الأخلاق المحورة للبروليتارية ذات طبيعة ثورية، فهي تستنتج قاعدة للسلوك من قواعد تطور المجتمع، أي من النضال الطبقي قانون جميع القوانين). فكأنه لكي يقطع دابر كل شك حول المعنى الذي قصده، يقول (الغاية تنبع من الحركة التاريخية)، أي الصراع الطبقي. إن مبدأ توافق الوسيلة والغاية قد اختفى على هذا الأساس أو اغرق على الأقل. ذلك أن اختيار الوسيلة لا يثور على أساس فحص مستقل للوسائل والسياسات بالنسبة لنتائجها الموضوعية المباشرة. وعلى العكس من ذلك، فإن الوسائل تستنتج من مصدر مستقل، مما يزعم بأن قانون التاريخ، هو قانون جميع قوانين التطور الاجتماعي. كما أن منطق المسألة لا يتبدل في حال شطبنا على كلمة (ما يزعم). ذلك أنه حتى في هذه الحال، فإن الوسائل التي تستخدم ليست مستمدة من اعتبارات الغاية وهي تحرير الجنس البشري، وإنما من مصدر خارجي آخر. وعلى هذا، فإن الغاية المتوخاة، الغاية الموضوعية نصب العينين، تحرير الجنس البشري، خاضعة للصراع الطبقي، كوسيلة يمكن بها التوصل إليه. وبدلاً من توافق الوسيلة والغاية، فإن الغاية تعتمد على الوسائل، إلا أن الوسائل ليست مستمدة من الغاية. ومادام الصراع الطبقي يعتبر الوسيلة الوحيدة التي يمكن التوصل بها إلى الغاية، وما دامت الفكرة القائلة بأنه الطريق الوحيد، قد جرى التوصل إليها بطريق الاستنتاج، وليس عن طريق التمحيص الاستدلالي للوسائل - النتائج في توافقها، فإن الوسائل، أي الصراع الطبقي، لا تحتاج إلى التمحيص الانتقادي بما يتعلق بنتائجها الموضوعية المباشرة. إنها مبرأة أوتوماتيكياً من كل حاجة للتمحيص الانتقادي. فإذا لم نعد بذلك إلى الوضع الذي أصبح فيه الغاية المتوخاة (المتتميزة عن النتائج الموضوعية) تبرر استخدام أية وسيلة تتفق والصراع الطبقي، وأن تبرر إهمال جميع الوسائل الأخرى فإنني لعاجز عن فهم منطق وضع السيد تروتسكي.

إن الوضع الذي أوضحته، وضع التوافق الحقيقي للوسائل والغايات لا يستعيد بشكل أوتوماتيكي الصراع الطبقي كوسيلة لتحقيق الغاية. ولكنه يستبعد فعلا الأسلوب الاستنتاجي للوصول إليه كوسيلة، هذا إذا لم نقل شيئا عن كونه الوسيلة الوحيدة. إن اعتبار الصراع الطبقي وسيلة يجب تبريره على أساس توافق الغاية والوسيلة، وتمحيص النتائج المباشرة لاستخدامها، ليس بطريقة استنتاجية. والاعتبارات التاريخية متعلقة بهذا التمحيص بطبيعة الحال، إن افتراض قوانين ثابتة للتطور الاجتماعي ليس واردا. فكأننا نريد لعالم أحياء أو طبيب أن يؤكد قانونا معيناً لعلم الأحياء يؤمن به، يتعلق بغاية الصحة إلى الحد الذي يجعل بالإمكان أن نستنتج من الوسيلة التي يتوصل بها إلى الصحة -الوسيلة الوحيدة بحيث أنه لا حاجة لدراسة أبعد لظاهرة البيولوجية. إن القضية كلها محكوم عليها سلفاً.

فإن تقول أن الصراع الطبقي وسيلة لتحقيق غاية تحرير الجنس البشري شيء، وأن تقول أن هناك قانوناً مطلقاً للصراع الطبقي يقرر الوسيلة التي يجب استخدامها شيء آخر. ذلك أنه إذا ما كان يقرر الوسيلة فإنه يقرر الغاية أيضاً- النتيجة المباشرة. وبناء على مبدأ التوافق الحقيقي للوسيلة والغاية، فإنه لمن التعسف والذاتية القول بأن النتيجة ستكون تحرير الجنس البشري. إن تحرير الجنس البشري هو الغاية التي نتوق إليها، وهي غاية أخلاقية بأي معنى مشروع (للأخلاق). ولا يوجد أي قانون علمي يستطيع تقرير غاية خلقية إذا ما تخلى عن مبدأ توافق الوسيلة والغاية. وقد يؤمن ماركسي ما بإخلاص أن الصراع الطبقي هو قانون التطور الاجتماعي ولكننا إذا صرفنا النظر عن حقيقة كون الاعتقاد يغلق الأبواب في وجه أي تمحيص أبعد للتاريخ -تماماً كالتأكيد بأن قوانين نيوتن هي القوانين النهائية للفيزياء تمنع أي بحث آخر في القوانين الفيزيائية- فإن هذا لا يعني صحة ذلك، حتى لو كانت قوانين التاريخ العلمية هي الوسيلة للهدف الأخلاقي لتحرير الجنس البشري. ذلك أن مثل هذه الوسيلة يجب ألا يتوصل إليها بطريق الاستنتاج، من قانون ما، وإنما بطريق تمحيص العلاقات المباشرة للوسائل والنتائج، أي تمحيص العلاقات المباشرة للوسائل والنتائج، الذي يوجد فيه بحث حر غير متعصب للوسيلة التي يمكن بواسطتها تحقيق هدف تحرير الجنس البشري.

ونريد هنا أن نضيف اعتبارا واحدا آخر للصراع الطبقي كوسيلة. فهناك عدد من الطرق المختلفة – كما افترض- التي يمكن بواسطتها للصراع الطبقي أن يتحقق، فكيف يمكن أن نختار من بين هذه الطرق المختلفة، إلا عن طريق تمحيص نتائجه بالنسبة لهدف تحرير الجنس البشري؟ إن الاعتقاد بأن قانون التاريخ يحدد الطريق الذي يمكن أن يحقق النضال يبدو ميالا نحو تكريس متعصب، لا بل تكريس صوفي لاستخدام طرق معينة لتحقيق الصراع الطبقي واستبعاد جميع الطرق الأخرى. ولست أرغب في الخروج خارج المسألة النظرية لتوافق الوسائل والغايات إلا أنه من الواضح أن الطريق الذي سلكته النظرية لتوافق الوسائل والغايات إلا أنه من الواضح أن الطريق الذي سلكته الثورة في الاتحاد السوفيتي يصبح أشد وضوحا، عندما نلاحظ بان الوسائل قد استنتجت من قانون علمي مفترض، بدلا من البحث عنها وتبينها على أساس علاقتها بالغاية الخلقية لتحرير الجنس البشري.

إن النتيجة الوحيدة التي استطيع الوصول إليها هي بتجنب نوع واحد من الاطلاقية إلى نوع آخر من الاطلاقية. ويبدو أن هناك تحولا عجيبا بين الماركسيين الأرثوذكس، تحولا عن الامتثال للمثل العليا الاشتراكية، والطرق العلمية لتحقيقها (علمية بمعنى أنها تعتمد على العلاقات الموضوعية بين الوسائل والنتائج، إلى الصراع الطبقي كقانون للتغيير التاريخي. إن الاستنتاج الذي يعتمد على الوسائل والمواقف من هذا القانون كشيء أساسي، يجعل جميع المسائل الخلقية، أي جميع مسائل الغاية المتوخاة، لا معنى لها، فأن نكون علميين بالنسبة للغايات، لا يعني أن نستخلصها من القوانين، سواء أكانت قوانين طبيعة أو اجتماعية. إن الماركسية الأرثوذكسية تشارك الدينية الأرثوذكسية والمثالية التقليدية، الاعتقاد بأن الغايات البشرية محبوكة بنسيج وبنية الوجود – وهذه فكرة ربما كانت موروثا عن أصولها الهيجلية.

مدينة نيويورك 3 تموز/يوليو 1938

جون ديوي)

الأخلاق الليبرالية

المناظرة بين جون ديوي وليون تروتسكي

جورج نوفاك

إن الليبراليين الأمريكيين يقتنعون بأن مواقعهم هي أمنع بكثير من مواقع الماركسيين على صعيد النظرية الأخلاقية والأخلاق العملية. وقد اقنعوا الكثيرين من الآخرين بأن هذه الحقيقة. وقد منح إرهاب نظام ستالين الذي وصل إلى ذروته بحوادث الإعدام ضد البلاشفة القدامى في محاكمات موسكو الملفقة، منح الديمقراطيين ألف فرصة لاستعراض تفوقهم الخلقى، ليس على الستالينيين فحسب، وإنما على الاشتراكيين الثوريين الذين كانوا ضحاياهم أيضا. وقد جرت مناقشة في أواخر الثلاثينات في دوائر ثقافية مختلفة في العالم، حول مشكلة العلاقات بين الأخلاق والسياسة إلى أن قضى عليها عرض الأخلاق المشبع بالدم والذي قدمته الامبريالية الرأسمالية في الحرب العالمية الثانية. وقد تعرضت الإفادات التي قدمت في نيسان من عام 1937 من قبل لجنة التحقيق الدولية التي قامت بالتحقيق بمحاكمات موسكو في كيوكان بالمكسيك، تعرضت لهذه المسائل بشكل عابر. وبعد ذلك كتب تروتسكي مقالته «أخلاقهم وأخلاقنا» التي ظهرت في (النيو انترناشيونال) في شباط/فبراير من عام 1938. وقد كتب الفيلسوف المربي جون ديوي رئيس اللجنة التي برأت تروتسكي من التهم الموجهة إليه، كتب نقدا لأفكار تروتسكي بعنوان: الوسائل والغايات، نشر في المجلة نفسها في شهر آب/أغسطس من العام نفسه، وقد منع ضغط العمل تروتسكي من الرد على الحجج التي قدمها ديوي.

هذه المناظرة المبتسرة بين اثنين من طلائع المؤمنين بالبرغماتية (الذرائعية) والماركسية، كانت مجابهة مباشرة ونادرة بين وجهات النظر الأساسية للفلسفتين حول الجوانب الخلقية للعمل الاجتماعي والسياسي. ومنذ ذلك الحين لم تفقد هذه المسألة أهميتها، أو تكف عن الاستحواذ على انتباه الليبراليين والثوار خلال سبعة وعشرين عاما. والحق أنها أشد ملاءمة اليوم منها بالأمس.

مشكلات الأخلاق

قبل أن نخوض في مسائل الطريقة التي أثّرت في هذا الصراع الإيديولوجي، قد يكون من المفيد أن نستعرض المشكلات الأساسية المتعلقة بتكوين أخلاق انتقادية وعقلانية.

إن منظري الأخلاق يجابهون صعوبتين أساسيتين في الوصول إلى أساس عقلاني أو تفسير علمي لمستويات السلوك. وأحد هاتين الصعوبتين التغيير الحاد في الأفكار المتعلقة بالصواب والخطأ خلال العصور. وسيكون من الصعب العثور على عمل إنساني لم يكن عرضة للأحكام الخلقية المتعارضة، فأكل لحوم البشر ممنوع في كل مكان اليوم، ومع ذلك، فقد كان شائعاً في الأزمان البدائية، وتقوم بعض القبائل التي تجمع الطعام وتمارس الصيد، بالقضاء على المسنين. وأما اليوم فنحن نناضل من أجل إطالة أمد حياتهم.

وحرية العلاقات الجنسية التي تعتبر غير مشروعة، كانت سائدة ومسموحاً بها في الماضي. وعلى الرغم من أن الكذب يعتبر عملاً خاطئاً، فإن الأطباء يختلفون بشكل عام وبالنسبة للمسائل الحساسة، حول ما إذا كان من الصواب البوح بالحقيقة للمريض فيما يتعلق بحالته، إذا ما كان مصاباً بداء عضال. والملكية المتفاوتة إلى حد كبير، وتوزيع الثروة الذي يعتبر من الأمور المسلم بصحتها في ظل الرأسمالية، كل ذلك مما يعترض عليه الهنود البدائيون. وهذه الصور يمكن أن يضاف إليها الكثير.

وأشوأ من ذلك بالنسبة للباحثين عن الأخلاق المطلقة، هو حقيقة أن أشكال العمل نفسها التي تعتبر الخير الأقصى لمجموعة معينة من الناس، هي في الوقت نفسه الشر الأعظم بالنسبة لمجموعة أخرى. فمحطمو الإضرابات هم أبطال بالنسبة لأرباب العمل، ولكنهم أوغاد بالنسبة للعمال. وقنبلة هيروشيما ونغازاكي الذرية التي روعت آسيا، كانت مبررة من قبل القوات المتحالفة. ومع مصادرة الملكية في كوبا، تبودلت في أمريكا الخلقية المتعارضة من قبل المدافعين عن الرأسمالية والمؤمنين بالاشتراكية.

وعلى ضوء هذه الأوضاع الخلقية المتعارضة التي تتعلق بتعايش تقيّمات متناقضة لأعمال واحدة، ولنفس الذين قاموا بهذه الأعمال، أية أسس ثابتة يمكن أن نعثر عليها للتمييز بين

ما هو خير وما هو شر، وبين ما هو خطأ وما هو صواب؟ هل المستويات الخلقية الثابتة ممكنة على الإطلاق؟ إن كل مدرسة من مدارس الأخلاق قدمت جوابها الخاص بها على هذه الأسئلة. فالديانات التقليدية تقدم تبريراً إلهياً لأخلاقها، والشرائع التي تدعو إليها تعتبر كلمة الله، كما ظهرت لموسى والمسيح ومحمد، وفسرها الحاخامون والكهنة ومسؤولون آخرون للكنيسة. إن وصايا الله أبدية ولا يجوز خرقها، لأنها جواز المرور إلى الجنة والخلود.

وبالتدريج تحررت الأخلاق من مثل هذه النواحي والأوامر الدينية. ومع تقدم الحضارة وازدياد الثقافة والمعرفة العلمية، اضطر الفلاسفة لإيجاد أسس عقلانية وعلمانية لأخلاقهم. وفي اللحظة التي انتزعت مرساة الأخلاق من السماء أصبح من الضروري إيجاد أسباب لوجودها وتطورها على ضوء الحاجات المتبدلة للبشر. وأخيراً قدمت المادية التاريخية أصح تفسير علمي لأصول وفحوى الشرائع الخلقية، ولدورها الاجتماعي وحدودها.

الفكرة الماركسية للأخلاق

(إن البشر يستمدون أفكارهم الخلقية، عن وعي منهم أو دون وعي، يستمدون هذه الأفكار بالحساب الأخير من العلاقات العملية التي يستند إليها وضعهم الاجتماعي من العلاقات الاقتصادية التي تحتم بالإنتاج والتبادل)، هكذا يقول انجلز Engels في عرضه للنظرية الماركسية للأخلاق في كتابه (انتي دوهرينغ Anti-Duehring). إن أخلاق الحياة القبلية تختلف بالضرورة فيما يختص بقيمتها الأساسية عن أخلاق المجتمعات المتمدنة، بسبب الاختلافات في علاقاتها الإنتاجية وأشكال الملكية فيها. إن الوصية التي تمنع السرقة واشتراء زوجة الجار تبدو سخيفة بالنسبة لأناس بدائيين غير مرتبطين الملكية الخاصة، سواء فيما يختص بأدوات الإنتاج أو وسائل إعادة الإنتاج.

لقد أوضح انجلز أن هناك ثلاثة أنماط أساسية من الأخلاق شائعة اليوم. فهناك الأخلاق المسيحية الإقطاعية التي تتمثل بالكاثوليكية أفضل تمثيل، والأخلاق البرجوازية العصرية، والأخلاق البروليتارية. ومواقف هذه الأخلاق من الزواج والطلاق يمكن أن توضح الفروق في وجهات نظرهم

الأخلاقية. فالنسبة للكاثوليك، الزواج من صنع السماء ويجب أن يستمر إلى الأبد. وبالنسبة للبرجوازي العادي يعتبر الزواج نتيجة لتعاقد مدني ينظمه موظفو الحكومة ويجعلونه شرعياً، أو يقومون بإنهائه. وبالنسبة للاشتراكي يعتبر الزواج مسألة تتم أو تلغى بواسطة الإرادة الحرة لذوي العلاقة.

هذه المظاهر الخلقية العامة تمثل ثلاث مراحل متتالية في تطور العلاقات الاقتصادية، وتشرح حاجات ووجهات نظر تشكيلات طبقية اجتماعية مختلفة، تتعايش وتتصارع في عقول البشر وحياتهم اليوم.

لقد استنتج انجلز أن الأخلاق ومبرراتها النظرية كانت نتيجة للمجتمع في المرحلة الاقتصادية، ذلك المجتمع الذي توصل إليه في تلك الحقبة بذاتها. وما ادم المجتمع المتمدن قد انتقل إلى مرحلة العداء الطبقي، وما دام مستمرا في ذلك، فإن كل أخلاق هي –ويتعين أن تكون كذلك- أخلاق طبقية (إنها إما أن تبرر سيطرة ومصالح الطبقة الحاكمة، وإما أن تمثل، عندما يصبح المضطهدون أقوى بما فيه الكفاية، الثورة على هذه السيطرة ومصالح المضطهدين في المستقبل)، وهكذا فإن تفسيره المادي لتبدلات واتساع الأحكام الخلقية يقدم التبرير لأخلاق جديدة وأسمى.

الموقف الأخلاقي للبرغماتية

يعتبر الذرائعيون أنفسهم اختصاصيين في مشكلات الأخلاق. ومن جهة أخرى فإن النظرية الأخلاقية هي بديلهم عن الديانة التقليدية، كما أنها تمثل وسيلتهم الرئيسية للدفاع والهجوم على الموقف المادي من المشكلات الاجتماعية. إن الذرائعيين لا يعتمدون على أية (حقائق مطلقة) تجدد مستوياتهم الخلقية، فهم يرون أن هذه (الحقائق المطلقة) قد هزمت إلى غير رجعة بواسطة نظرية التطور، وبفعل المعرفة الحديثة. فعلى أية أسس إذا يمكن أن تدعو لممارسة أية فضائل ونبرر ذلك؟ إن هذه الفضائل ليست خيرة في حد ذاتها، أو منزلة كالوصايا العشر، أو تفرضها المحرمات. إن قيمة أي عمل لجون ديوي، قيمة أي أسلوب للسلوك، أية سياسة، يجب أن يحكم عليها بنتائجها الحقيقية فقط. ومما يؤخذ بعين الاعتبار ليس نوايا ودوافع وأهداف الأفراد، وإنما النتائج المحضة الناتجة عن أعمال الناس. إن ديوي يرى في الأخلاق (فعالية ظاهرة لها

نتائج بدلا من كونها مجرد صفة شخصية داخلية) (البحث عن يقين، ص 6). وهذا المقياس الموضوعي قد فصل ديوي عن جميع أولئك البشر شبه المتدينين والعاطفيين الذين تعتمد القيمة الخلقية لديهم على (طيبة القلب).

فأية أعمال تميل إلى زيادة الثروة وتوزيعها بالتساوي، وزيادة الديمقراطية والحرية، وترسيخ العلاقات السلمية، وتفتح فرصا أكثر لعدد أكبر من الناس، وتشجذ حساسياتهم، وتزيد من إدراكهم الخ، هي أعمال خيرة. فإذا ما كانت لديها نتائج معاكسة وجب إدانتها واعتبارها غير أخلاقية.

وعلى ذلك فالاستثمار خطأ لأنه يسرق ويقسم ويضطهد الناس، ويجب أن نجعل المضطهدين يعترفون بذلك، وأن يصلحوا أنفسهم أو يصلحهم المجتمع. والقوة خطأ أو أنها ضارة أكثر منها نافعة بالنسبة لنتائجها. ولهذا فمن الواجب عدم اللجوء إليها أو استخدامها، إلا في حال الضرورة القصوى. والصراع الطبقي خطأ ويجب أن يستعاض عنه بالانسجام والتعاون الطبقي.

مثل هذا المبدأ ينم عن قدر كبير من الإرادة الطيبة ويشهد بطيبة الأخلاقي الذرائعي، إلا أن الذرائعيين لا يقدمون إدراكا علميا للوضع الحقيقي الذي خلق هذه الصراعات الاجتماعية، كما أنهم لا يفصحون عن حل عملي لها. فمن السهل أن نحمل على الأثرياء وان نقول بأن على أصحاب الامتيازات أن ينظروا في أمر حاجات الفقراء، وأن يتخذوا الخطوات اللازمة لمعونتهم. لقد بشر الدين بمثل هذه المواعظ ومارس مثل هذا الإحسان طيلة قرون عديدة دون أن يستأصل الشروط التي تمخض عنها عدم المساواة.

وهناك فرق شاسع بين مثل هذه الخلقة المجردة، وبين الاستقصاء العلمي الصحيح للأخلاق وتطورها. إن الموقف العلمي من الأخلاق يجب ألا يكون قادرا على إخبارنا بأن الاستثمار شر فحسب، وإنما أن يخبرنا بماذا يتعين على الأشياء أن تسلك ذلك السبيل من الهداية، وان يوضح، على هذا الأساس كيف يمكن إزالة شرور الاستثمار. تلك المشكلة ليست فردية وإنما هي مشكلة اجتماعية جمعية.

إن أعلى هدف لأية أخلاق إنسانية هي إدراك كل فرد لنفسه وتطويره لشخصيته الإنسانية ومحاولة إكمالها. لقد آمن ديوي، وهو محق في ذلك، أن السلوك الفردي خاضع عنوة للعمل الاجتماعي، وأن الأخلاق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالشروط الاجتماعية وبالسلوك ونتائجه. لقد كان على استعداد لعرض المسألة والدخول في نزاع مع الماركسية دفاعاً عن وجهات نظره في تلك الحلبة المتقدمة.

الوسائل والغايات الأخلاقية

إن أول المسائل التي عالجها ديوي هي مسألة العلاقة الشائكة بين الوسائل والغايات في الأخلاق. فالعديد من أصحاب الأخلاق الليبرالية يعتقدون بأن مثل هذا المبدأ هو أساس لكل الشرور. وعلى ذلك فربما جاء اتفاق ديوي مع تروتسكي بأن الغاية تبرر الوسيلة بمثابة صدمة مفاجئة لهم. إن الغاية والوسيلة متوافقان.

إلا أن كلا منهما، كما يقول ديوي، يمكن أن يبرر بما يسمى بـ(إراحة الضمير أو الحس الخلقى، أو بعض أشكال الحقائق الأبدية). إنها يمكن أن تبرر - كما يعلن - ليس بنتائجها المباشرة (أو من أن الغاية من ناحية نتائجها تقدم الأساس الوحيد للأفكار والعمل الخلقى، وبذلك تقدم التبرير الوحيد الذي يمكن إيجاده للوسائل المستخدمة). لا شيء آخر يمكن أن يجعل الوسائل خيرة أو سيئة باستثناء نتيجة استخدامها.

لقد بين تروتسكي أن أعلى غايات العمل الاشتراكي هي زيادة سيطرة الإنسان على الطبيعة، وإلغاء سيطرة الإنسان على الإنسان (القهر الاجتماعي) نتيجة لذلك. وقد اعتبر ديوي أيضاً أن هذه الأهداف هي الأشد جدارة من سواها. ويوضح تروتسكي أكثر من ذلك أن جميع هذه الوسائل التي أسهمت في تحقيق هذه الأهداف، مبررة أخلاقياً. وحتى الآن لا يوجد عدم اتفاق بين الماركسي والذرائعي.

فقد افترق موقف كل منهما عن الآخر، عندما وضعت مسائل المؤسسات والطرق التي يمكن بها تحقيق هذه الأهداف، موضع الدراسة والاعتبار. ولقد أكد تروتسكي أن القوة الوحيدة في المجتمع الحديث القادرة على القيام بهذا العمل، هي الطبقة العاملة المنظمة. والطريقة الوحيدة التي يمكن أن

يقضي بها العامل على الظلم والاضطهاد والسيطرة سيطرة تامة على الطبيعة، هي تطوير نضاله حتى النهاية، ضد المنتفعين الرأسماليين ورافعي لواء الامتيازات الاقتصادية.

وهنا يختلف ديوي مع تروتسكي بشدة. فهو يرى أن كلا من هاتين الفكرتين خاطئ. فتروتسكي ليس مقتنعا في وضع المهام الأساسية بتحديد البناء الاجتماعي في زماننا، في يد العمال. إن هذه المسألة ذات أهمية عامة تتجاوز أية مصالح طبقية خاصة، جميع الناس من ذوي الإرادة الطيبة بدءا من أعلى طبقات المجتمع وحتى أخفضها، يجب أن يستنفروا لضمان السيطرة الجمعية على الطبيعة والاقتصاد.

ويزعم ديوي أيضا أن تروتسكي قد أخطأ في اعتماده الكلي على قمع الصراع الطبقي كوسيلة للوصول إلى الأهداف المرغوب فيها. والطرق الأخرى غير الصدام بين الرأسماليين والعمال ليست جديدة فحسب، وإنما ستؤدي إلى نتائج أفضل. وهكذا فإن خلافاتهم حول النظرية الخلقية تركزت حول عدم اتفاقهم على الوسائل الكفيلة بتحقيق التقدم الاجتماعي. ومن حيث الجوهر، كان الخلاف يتركز حول الطريقة: طريقة التفكير وطريقة السلوك.

وقد قام ديوي عمدا برفع خلافتهما إلى مستوى الطريقة المنطقية والعلمية. فهو يقول بأن طريقة تروتسكي في التفكير غير صحيحة، لأنه يستنتج الوسيلة (الصراع الطبقي) من قراءته (أو خطأ قراءته) لمجرى التطور الاجتماعي. وبوصفه للصراع الطبقي على نحو غير مشروع، قانونا مطلقا وأسمى للتاريخ، أخضع تروتسكي في الواقع، أخضع الغايات لوسائل معينة بدلا من أن يسمح للغايات بأن تحدد وسائلها. فكيف كان يتعين على تروتسكي أن يجد الوسائل؟ يقول ديوي أن ذلك يمكن أن يتم بـ(تمحيص النتائج المباشرة لنفعها). وهذا هو الموقف العلمي الصحيح والوحيد الذي يأخذ بعين الاعتبار التوافق الحقيقي لهذين العاملين.

ومقابل الاستنتاج، أي استنباط نتائج معينة من قواعد عامة، وضع ديوي عملية الاستقراء، كوسيلة للتوصل إلى تعميمات على أساس الحوادث المكررة أو المطابقة.

إن هذا الطباق غير موجود، فهل يستمد تروتسكي وسائله بشكل تعسفي كما يفهم من ديوي، بواسطة عمليات الاستنتاج وحدها؟ الواقع أن تروتسكي قد قوّم الوسائل بالإشارة إلى قوانين وحاجات الصراع الطبقي. ومع ذلك، فإن هذه القوانين لم تخلق بحرية وتفرض من قبل الماركسيين على المجتمع، لقد استمدت من دراسة شاملة قبلية للعمليات الاجتماعية خلال عدد من الأجيال وبوسائل علمية محضة. إن قوانين الصراع الطبقي هي قبل كل شيء تعميمات تجريبية تطورت من تحليل الحقائق التي يقدمها تاريخ الحضارة، بما في ذلك التاريخ الأمريكي.

الوضع المنطقي للصراع الطبقي

إن الترتيب الرائع لمواد الواقع المتعلقة بالصراع الطبقي ودوره الحاسم في التاريخ، هذا الترتيب الذي استمدت منه هذه القوانين، قد لوحظ وسجل قبل وقت طويل من ظهور ماركس على المسرح. فعلى سبيل المثال، قام العديد من الكتاب والمؤرخين الإغريق القدماء (ثيوكديدس، أرسطو وأفلاطون) بملاحظة ووصف هذا الترتيب. وما فعله الماديون التاريخيون هو أن أعطوا أول تفسير كاف وصحيح للحوادث. فقد شرحوا كيف نشأت الطبقات خلال نمو القوى المنتجة، وانقسام العمل الاجتماعي ووجود فائض كبير للإنتاج، ولماذا تركزت الصراعات الطبقيّة حول الاستيلاء على هذا الفائض المتزايد في الثروة.

أليس ذلك أكثر من نظرية حول التطور الاجتماعي؟ ذلكم هو ما يود ديوي، الوسلي أن يقوله، غير أن الصراع الطبقي كان له دور مختلف عن الدور المبهم الذي ينسبه الليبراليون له. إنه أكثر من مجرد إمكانية أو فرصة أو توافر للحوادث في مجتمع متمدن. إنه ضرورة، إنه يقين، وهو يتعمق حسب مجموعة من القوانين تشكل العوامل الأساسية التي تنشأ عن أعماق تركيب للمجتمع الطبقي. وهذا ينطبق على جميع المجتمعات الطبقيّة بصرف النظر عن مستويات التطور فيها، وبصرف النظر عن عوامل محدودة أخرى (1).

فمتى اكتشفت القوانين التي تتحكم بالصراع الطبقي وتشكلت ونسقت، أمكن تطبيقها كما هو الأمر بالنسبة لجميع القوانين العلمية الأخرى. وقد مكنت الباحثين من التغلغل أعماق فأعمق

في بنية وحركات المجتمع الداخلية، وفي تجمعاته وشخصياته القيادة، وبالتالي توجيه تطويره تحت ظروف معينة، على حد معين.

طبيعة التصورات والقوانين

إن الوسلبيين من أمثال ديوي لديهم مع ذلك، تصوّر مسبق لا يهين، حتى ضد أشد الأحكام المسبقة ثباتاً. وهذا النفور والاشمئزاز هو الأساس الرئيسي لنظريتهم في المعرفة التي تشتمل على تناقض في صلبها. ويصر الوسلبيون على وجود. تبدل عالمي في جميع الأشياء، ومع ذلك، فإن الأفكار بالنسبة لهم ذات جوهر سكوني. والأفكار لا تفقد طبيعتها الافتراضية الموروثة، ولا يمكن أن تتبدل فعلاً إلى تعيينات مهما كان مجرى أو نتائج التطور العلمي والاجتماعي.

هذا الافتراض ليس تجريبياً أو عقلائياً. والواقع أن العديد من الأفكار التي تبدأ كفرضيات تتحول إلى شيء مختلف كلياً نتيجة للاستقصاء العلمي والممارسة، وتصبح حقائق مجربة وقوانين علمية. فنظرية وجود الذرات والبنية النووية الداخلية للمادة، كانت مجرد تخمين ذكي، مجرد حدس عندما فكر بها الإغريق القدماء. أما الآن فقد أصبحت حقيقة ناجزة يمكن أن نستمد منها أشد النتائج انفجاراً. ومع ذلك، فالذرة لم تكن بالنسبة لديوي، مثله في ذلك مثل الوضعي ارنست ماخ Ernest Mach حقيقة، وإنما هي مجرد (فكرة عملية) (انظر في كتابه المنطق ص 153 والبحث عن يقين ص 119-131).

لقد اعترض ديوي على قوانين الصراع الطبقي واعتبر أن هذه القوانين لا تمتلك أساساً متيناً لأنها (تحكم سلفاً على خصائص وأنواع الظواهر المباشرة التي تتعلق بها خطط العمل المقترحة). غير أنها لا تختلف عن قوانين النشاط الذري أو القوانين الفيزيائية الأخرى.

إن التعميمات الفكرية تظل بالنسبة للذرائعي موضع اختبار دائم. ولا يمكن لأي قاض أن يتوصل إلى رأي حاسم حول حقيقتها أو زيفها مهما كانت مبررة. لماذا؟ لأن العناصر غير الحاسمة لا يمكن استئصالها من الواقع كلياً.

وبالنسبة للذرائعين يتعين أن يجري تقديم كل فكرة أو تصور من جديد، وأن تمحص كل نتيجة من القمة إلى القاعدة تتعلق بكل وضع جديد. وتكرار الفكرة للمرة الألف ليست له طبيعة مختلفة نوعيا عن حدوث الفكرة للمرة الأولى. إن الوسليين يتحدثون وكأن من الممكن والضروري للناس، البدء من جديد لدى كل مناسبة، ومجابهة العالم الذي يحيط بهم صفر اليدين وفارغي الرؤوس.

إن هذا بالضرورة إنكار لجميع المعرفة المكتسبة، والطرق العلمية، وحتى لنتائج الاستقراء، ولا أحد سوى الرضع يتصرف إزاء العالم ويعالج المشكلات التي يطرحها دون استخدام المصادر المتراكمة للتطور الاجتماعي، بما في ذلك صندوق الأحكام المستمدة من التجربة التاريخية والدراسة المباشرة للواقع.

هذه ليست مجرد مجموعة تأملات فهي تشتمل بكليتها على معلومات محققة وتعميمات مدققة، غير أن مضمون الأفكار يظل غير حاسم جوهريا ونظريا دائما في أعين الوسليين الأصلاء الذين يرون (أن الأفكار لا تفصح عن الواقع).

إن تقدم العلم يؤدي إلى الحصول على معرفة القوى الحقيقية التي تحدد إنتاج الظواهر وتشكلها اللاحق في قوانين. لقد بالغ ديوي مبالغة كبرى في (تقييم) جانب التردد في الواقع وعدم اليقين في المعرفة الحقيقية. كما أنه قلل من تقديره ونُحي نسبة لأهدافه الشخصية، وكان يعرف هذا مسبقا، وقد تعرف على الحقائق المؤكدة عن المواضيع الحقيقية.

(كل خطوة سياسة هي بشكل منطقي، يتعين أن تكون بشكل مباشر، من طبيعة تجربة ما) هكذا يقول بإصرار في كتابه (المنطق) (508). إن هذا التوكيد الكاسح ليس صحيحا منطقيا، كما أنه ليس كاملا في الحقيقة. إنه نصف حقيقة خطيرة ومضللة.

وكون سياسة ما، جوهريا أو عرضيا فحسب (من طبيعة تجربة ما) يعتمد على الظروف المميزة لموقف ما، وعلى طبيعة الاقتراح المطروح. وفي معظم الحالات هناك إجراء لا مناص منه من عدم الحسم والتردد الذي يمنح رد الفعل عليه، شخصية مشكوك فيها. غير أن هذا الإجراء الذي ينطوي على

عدم اليقين وعلى المصادفة هو متنوع كَمَا وكيفا. إن قيمة النظرية العلمية وهدف الممارسة العقلانية هما تخفيض هذا الحد إلى الحد الأدنى.

ولنأخذ مثلين من الممارسة الصناعية. إن عامل المخرطة في معمل ما يستطيع أن يعرف مقدما ما إذا كانت القاطعة أليّن بكثير من أن تستطيع قطع فولاذ ذي صلابة معينة، وهو لن يستخدم فولادا أشد ليونة، كما لن يستخدم ملقطا خشبيا بطبيعة الحال لتحقيق هذا الغرض. وبهذه الحالة فإن الهدف - صنع معدن بشكل وحجم معين- والحقيقة المادية - وصلابة المعدن- يحددان بشكل متبادل وأمام العين، إيجابا وسلبا، نوع الوسيلة لتحقيق النتائج المطلوب.

فلماذا لا يمكن للقواعد نفسها أن تنطبق على العلاقات الصناعية كما تنطبق على أعمال المخزن، أليس بوسع العامل نفسه أن يعرف مقدما كيف سيتصرف رب عمله عندما يطلب هو وزملاؤه زيادة في الأجور. إن رب العمل حقيقة اجتماعية من نوع معين، ومصالحه المادية تمنحه درجة معينة من الصلابة، تمنحه مقاومة محددة لارتفاع تكاليف الإنتاج لديه وانخفاض أرباحه. ولتحقيق هذه الأهداف فإن عماله يحتاجون إلى أدوات اجتماعية من نوع معين، أدوات قوية إلى الحد الذي يكفي للتغلب على تلك المقاومة. وهذا هو السبب في أنهم قد أسسوا الاتحادات ونظموا الإضرابات بدلا من الاعتماد على رفع العرائض بشكل فردي.

وهنا نصل إلى لب المشكلة، إن كل مفاوضة حول الأجور ليست ضرورية، ويجب ألا تكون تجربة جديدة كليا ولها عوامل غير معروفة مهما كانت حالات عدم اليقين بالنسبة لأي وضع مطروح. لقد كان العمال وأرباب العمل يتعاملون فيما بينهم خلال عشرات السنين وفي جميع أنحاء العالم، وباستطاعة قيادة اتحاد ذات خبرة جنبا إلى جنب مع عضوية نيرة أن تدخل في مفاوضات جماعية وهي مسلحة بمعرفة طبيعة أرباب العمل، تلك المعرفة المستمدة من العلم الاجتماعي والتجربة اليومية، الأمر الذي يساعدها على التصدي للمعارضة تجاه مطالب العمال العادلة.

فإذا ما كانت كل مفاوضات أو كل عمل من أعمال الإنتاج يجب أن يعامل نظريا أو عمليا على أساس أنه تجريبي بشكل

إجمالي، كما يطالب ديوي، فإنه لا يمكن أن نعتبر أية وسيلة معينة لدينا أفضل بالضرورة أو أشد ملاءمة لمتطلبات النضال من وسيلة أخرى. وهذا يستبعد الاعتماد على إجراءات محققة ويترك الميدان واسعا أمام أي ابتكار خاضع للنزوات.

مثل هذه التجريبية غير المقيدة غريبة كليا عن الإجراءات المباشرة للعلماء وعن طرق الصناعة الحديثة العادية.

إن هدف إنتاج مصنع آلي هو عدم ترك أي شيء للصدفة، بل تنظيم جميع العوامل في العملية. وتحدث الحوادث والاستثناءات في أفضل الأنظمة تنظيما، ولكن حتى هذه الحوادث والاستثناءات يحسب حسابها مقدما بواسطة أجهزة توضع مسبقا لاكتشافها عندما تبتعد عن الحدود المسموح بها، ولكي تعوض عنها وتصححها في الوقت الملائم. إن الأنظمة المنظمة ذاتيا هي قطعية بشكل خاص، فيما يتعلق بتعقيدات صناعية، كالمصانع النووية الذرية التي تشتمل على أعلى ألوان الاتحاد بين النظرية العلمية والإنتاج.

لقد قال ديوي أنه أراد أن تشمل آخر أساليب العلم والصناعة جميع المشكلات اليومية، فإذا ما حدث هذا، فإنه يتعين أن يكون حقل الفعالية بالنسبة للتجارب الاتفاقية في معظم المناطق الحيوية من الحياة الاجتماعية في أن ينخفض ويصبح هو نفسه عرضة لمراقبة. إن التجربة ضرورية لجميع مجالات النشاط، والعلم والصناعة يتعهدان هذه الحاجة بتقديم أماكن خاصة لإجراء هذه التجارب. وفي الصناعة يجري فصل العمل التجريبي في المصانع الرئيسية والمخابر، عن الإنتاج الكبير الذي يتم بواسطة أساليب للتقنية وآلات موثوق بها.

وفي الوقت الحاضر حدثت تجارب لا تعد ولا تحصى، لا بل حدثت اختبارات كثيرة، قامت بها القوى المتنازعة في حقل العلاقات الطبيعية. والنتائج الايجابية والسلبية لأساليب العمل المختلفة هذه، قد لخصتها الاشتراكية العلمية في قوانين الصراع الطبقي وبرمجتها في برامج أحزاب العمال، وهي تحمل قيمة عملية عظيمة باعتبارها ترشد إلى القوى الاجتماعية التقدمية في نضالها الأبعد مدى.

ومن جهة أخرى فإن وجهة النظر البرغماتية تعتمد على التعادل الشكلي بين جميع الأفكار، أكثر مما تعتمد على وضعها المادي الحقيقي. فكل فكرة تعتبر في حد ذاتها حقيقية ومفيدة وفعالة كأية فكرة أخرى، وبالطريقة ذاتها يفترض أن سوق السلع يعتمد على التعادل الشكلي بين التبادلات، كما يعتمد القانون البرجوازي على التعادل الشكلي بين جميع المواطنين أمام حدود العدالة، والديمقراطية تعتمد على التعادل بين أصوات جميع المواطنين. كل هذه الافتراضات تتناقض والوضع الحقيقي في المجتمع الرأسمالي بكل ما فيه من فقدان للعدالة الاقتصادية وتمايز بين الطبقات. إن فكرة ما ليست في الواقع خيرة قدر فكرة أخرى. فبعض الأفكار أصح من أفكار أخرى لأنها لا تعكس كلها الواقع بشكل متكافئ وبالتالي فهي لا تتطوي على التبعات نفسها عندما تستخدم لإدارة وتوجيه فعالية ما.

الحتمية المتبادلة للغايات والوسائل

إن الوسائل والغايات مترابطة Interdependent بالنسبة لديوي، بيد أنه اعتقد أن كلا من هذين الاصطلاحين شرط للآخر. ولا يمكن لأحدهما أن يحدد الآخر أو أن تحدده مسبقاً الشروط المادية الكافية، فأحدهما شرطي ونظري قدر الآخر.

وعلى سبيل المثال فإن الاستغلال سيء ويجب القضاء عليه، غير أنه بالنسبة لديوي، يمكن استئصاله بعدد من الطرق: بواسطة الصراع الطبقي أو الاتفاق الطبقي أو بالمزج بين الطريقتين. إن (أيا من هذه الوسائل ليس حاسماً فيما يتعلق بالهدف المرغوب فيه): أي القضاء على الاستغلال الرأسمالي. ذلكم هو وضعه النظري المجرد.

وهذا يبدو غير متحيز على الإطلاق، ولكن عندما تدخل حيّز التطبيق –الذي هو الاختبار الحاسم بالنسبة لكل برغماتي – فإن الليبرالي ليس بغير متحيز، فهو يفضل ويختار في تسع حالات من أصل عشر الوسائل التي يتحقق فيها أقل قدر من المقاومة . وأن اللجوء إلى المقاومة الكبرى يأتي كآخر ملجأ دائماً، وهذا الانحياز ليس اتفاقياً، فموقفه ينبع من حاجة طبيعية ككائن اجتماعي، ومن مطامحه كمتقف من الطبقة الوسطى ومن غموض وجوده في وسط المعسكرات الاجتماعية المتعارضة.

وفي بعض الأحيان يتخذ الليبرالي اليساري طريق الصراع فعلا ولكن مرغما وبفعل ضغط الظروف القاهرة، فهو يشعر أن هذا الأسلوب ينافي الواقع بطريقة ما وينافي مصالح جميع الفرقاء المعنيين بما في ذلك مصالحه هو. وأساليب الصراع الطبقي هي في الواقع منافية لمركزه الوسط حيث تتجاذبه الاتجاهات المتعارضة والعداوات بين رأس المال والعمل وبين والسواد.

إن نقد ديوي الرئيسي والثاني لتروتسكي هو أن الماركسيين مطلقون في لجوئهم إلى القوانين المرسومة عندما يختارون وسيلة العمل الاجتماعي. وقد ادعى أن تروتسكي لم يكن تجريديا أو علميا وإنما مثاليا وذا تفكير ديني لأنه فرض أهدافه التي يرغب فيها التطور الاجتماعي، وتصرف وكأن (الأهداف الإنسانية مندمجة بنسيج وتركيب الوجود).

فكم من التبرير يحمل هذا النقد؟ إن تروتسكي كما دي لم يعتقد مطلقا بأن الأهداف الإنسانية مندمجة بوجود الطبيعة، ومع ذلك فقد أكد أن الغايات الطبقيّة محبوكة موضوعيا (في نسيج وبنية) الوجود الاجتماعي في ظل ظروف تاريخية معينة.

وقد أنكر ديوي ذلك. فالمجتمع بالنسبة إليه، لا يمتلك نسيجا وبنية محددين على هذا النحو وبحيث أن القوانين العامة المتعلقة بأهداف الطبقات يمكن أن نستخلص من تحليل التطور الاجتماعي وبالتالي تستخدم لحساب سلوكها كأساس للعمل.

فإذا لم تكن ثمة قوانين مطلقة تتحكم بنشاطات الطبقات فإنه لا يمكن أن توجد وسائل ضرورية كالصراع الطبقي لتحقيق الأهداف الاجتماعية. وإذا لم تكن ثمة قوانين مؤكدة ولا وسائل معتمدة فمن الذي يأخذ مكانها إذن؟ الحدوث الاختبارية، الخطط المبنية على الآمال، والجهود التجريبية، وقبل العمل يمكن للعديد من الوسائل المختلفة ولأية وسيلة بشكل رئيسي أن تحرز الغايات المتوخاة. فإذا لم تكن تعلم إلى أين تذهب أو من الذي تقف ضده حقا فإنه من المفروض أن أي طريق سوف يصل بك إلى هناك.

وعلى أي أساس إذن يجب اختيار طريق معينة من بين الطرق الأخرى؟ بالطبع يعترف ديوي بأن المعرفة والتجربة السابقين ستستخدمان في عملية الانتقاء، ولكنهما ليستا كافيتين على الإطلاق وقيمتهم تتجلى فقط من الفائدة التي تتبع منهما، ولسوء الحظ فإن النتائج تأتي فقط بعد اختيار الخطوات اللازمة.

فلماذا لا يمكن إذن أن تدير عملية الاختيار وتحددها الدروس المستفادة من النتائج المترجمة من الماضي؟ وعلى الرغم من أن ديوي لا يستبعد ذلك فهو لا يعطي هذا الأمر الوزن الحازم. فبالنسبة للبرغماتي ليس أي مقدار من القدر محددًا ونهائيًا. فهو يأتي فقط بعد الفعل وعلى أثر ذلك الفعل بعينه فحسب.

إن وجهة النظر هذه مناقضة للعقل، فهي تستهين بالحقيقة القائلة أن كل شيء تحدده بعد الحقيقة المعتمدة عليها وهي تتحول إلى شيء آخر تحدده الحقيقة التالية. ولا شيء يظل بشكل مطلق في الحالة المؤقتة المحضة التي يتطلبها منطق ديوي. فعندما تتراكم عوامل قدرية مادية كافية فإن اتجاه ونتائج التطورات يمكن التنبؤ به.

هل القوانين الاجتماعية نسبية أم مطلقة؟

فلنقارن بين منطق ديوي الخارج – عن هذا العالم وبين منطق الماركسية المادي الذي يتمثل للمجرى الحقيقي للتطور ووضع الأحداث.

إن كل قانون بما في ذلك أشد القوانين ضرورة وعالمية تحدده طبيعة الواقع الذي يتعامل معه وطبيعته هو تكوين إنساني وتاريخي متطور، وهذا يعطيه شخصية نسبية مشروطة، إلا أن هذا ليس جانب واحد من مضمونه، فإذا ما كان القانون صحيحا فهو مطلق بالنسبة للعمليات والظواهر التي تغطيها منطقة فعاليته.

وعلى سبيل المثال، فإن قوانين الصراع الطبقي بالنسبة للقضية موضع المناقشة تنطبق فقط ضمن شروط المجتمع الطبقي. وقبل تقسيم المجتمع البدائي إلى طبقات، لم تكن هذه القوانين غير قابلة للتطبيق فحسب، وإنما لم تكن موضع تفكير أحد. ومن الطرف الآخر للعملية التاريخية ستفقد هذه القوانين

مع اختفاء المجتمع الطبقي في المستقبل الاشتراكي، ستفقد تدريجياً حقل فعاليتها وتذبل حتى الجذور.

وعلى هذا، فإن هذه القوانين التي تتحكم بالعلاقات الاجتماعية نسبية ومطلقة في تطبيقها. وهذه النسبية تعتمد على المجرى المتبدل والمتناقض للتطور الاجتماعي من الجماعية البدائية، ومروراً بالمدينة حتى الاشتراكية، واطلاقيتها تعتمد على الدور المركزي الذي يلعبه تضارب المصالح الطبقيّة في بنية ونشاط المجتمع المتمدن.

الحمية التاريخية لأهداف المجتمع

يوافق ديوي على أن حقائق الحياة الاجتماعية يجب أن تكون نقطة الانطلاق والأساس لأية أخلاق حقيقية مرتبطة بعمل اجتماعي فعال. وهذا يعني أنه في مجتمع تنازعه الخصومات والعداوات يجب الاعتراف بأن ثمة مطالب خلقية مختلفة ستطرح وأحكاما خلفية مختلفة ستفرض من قبل الطبقات المتصارعة. فإذا ما طرحنا هذه الحقيقة الأساسية جانباً، فإن الأخلاق الناتجة قميئة بأن تكون خيالية أو منافقة وأي سلوك ينجم وما توصي به سيقدم نتائج سيئة.

لقد أدرك ديوي أن الفعاليات الفردية هي في إطار اجتماعي اقتصادي معين، وأن الأخلاق الفردية مرتبطة بتعاليم عامة للسلوك والغايات الاجتماعية بالنسبة له حاسمة في القضايا الخلقية، ولكن هل ما تفعله الشروط في الواقع وما يجدر بها أن تفعله يحددان الوسائل التي ستقدم الغايات المبتغاة؟ لقد علم ديوي بأن الذكاء المطلع أو (الذكاء الخلاق) يجب أن يتدخل ويقوم بدوره.

ودون أن نخاصم في هذا، يظل ذلك لا يجيب على السؤال العام. ما الذي يحدد كيف يتصرف الناس في هذا المجتمع، وأي لون من السلوك هو الذكي والخلاق؟ هنا تبدو العلاقات الطبقيّة الحقيقية وأدوارها في المجتمع الرأسمالي حاسمة.

إن أهداف وغايات الطبقات وأعضاءها وحركاتها تحددها في الواقع الحاجات والمصالح المادية، وهذا ينبع من الأدوار التي تلعبها في الإنتاج الاجتماعي ودورها في الأشكال المحددة للملكية. وعلى هذا فإن الهدف الجمعي لطبقة الرأسمالية في

الولايات المتحدة هو الحفاظ على نظامها الاقتصادي وتوسيعه، وذلك هو هدفها الأساسي، كما أنه يحدد سلوك الأشخاص الذين ينتمون إلى تلك الطبقة، كما يشكل شرطا لحياة جميع أفراد المجتمع.

بيد أن العمال الذين ينشطون في النظام نفسه لديهم غايات مختلفة، سواء أكانوا مدركين لهذه الحقيقة كأفراد أو مدركين لها كليا. فهم مدفوعون بحاجات معاشهم وشروط العمل في ظل الرأسمالية، لأن يحاولوا وأن يلجأوا استغلالهم، وعلى المدى الطويل سيضطرون لمحو مصدره: أي محو الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والتبادل. وفي هذا الصراع لديهم الحق في استخدام وسائل الصراع التي يستطيعون ابتكارها لمثل هذه الأهداف القيمة. وهذه الأسلحة تتراوح بين الحركة النقابية والإضراب، ومن التنظيم السياسي إلى الثورة الاجتماعية.

والصدام بين الغائتين المتناقضتين يحدد الوسائل المستخدمة بين القوى المتصارعة. فالحركة النقابية تثير الحركة المضادة لها، والإضراب يثير قوي تحطيم الإضراب. وعندما يواجه الحكام الرأسماليون بالعمل الثوري الجماعي ذي الأهداف الاشتراكية، يلجأون إلى الدكتاتورية العسكرية أو الفاشية، ويؤدي المجرى التاريخي للصراع إلى المعركة الحاسمة والنهائية التي تبرز فيها إحدى الطبقات التي تشكل القطب الحاسم منتصرة على الأخرى. والماركسيون يعملون بشكل نوعي لسيادة العمال.

إن الغايات الطباقية هذه حاسمة وواضحة حتى لو لم تكن مدركة دائما أو مطروحة بدقة من قبل ممثلي رأس المال وممثلي العمال الذين يضطرون للعمل وفق الظروف السائدة لأوضاعهم الاجتماعية الاقتصادية، فيما تتطور هذه الأوضاع من مرحلة إلى أخرى.

دور ليبرالية الطبقة الوسطى

ولكن ما هو الهدف التاريخي الموضوعي للطبقات الوسطى ولممثليها المثقفين من أمثال ديوي؟ في مجال النظرية يقوم دورها على إنكار الأهمية القصوى للصراع الطبقي، وضرورته وثماره إذا ما أحسن تنظيمه وتوجيهه. وفي مجال

التطبيق تدفع الطبقات الوسطى عادة إلى لجم تطور الصراع الطبقي لدى الطبقة العاملة في الوقت الذي يظل فيه أعداؤها أقوىاء وبلا كوابح. إن هذا الدور لبالغ الرجعية في العلم الاجتماعي والسياسة والاقتصاد والأخلاق.

وقد حقق ديوي في اختباره لوسائل وإحاطته للغايات بالغموض دورا اجتماعيا معيناً كمثل فلسفي لتلك العناصر الليبرالية من الطبقة الوسطى التي تتوق لأن تصبح الوسيط الأول في الصراع الطبقي في مجتمعنا. وباختيارهم للغايات والوسائل يحقق الماركسيون الثوريون الذين تحدث إليهم تروتسكي، يحققون دورهم كأبطال للمصالح الأساسية البعيدة المدى للجماهير العاملة. إن غايات ووسائل الطرفين من حيث المبدأ والتطبيق تحددها الفعاليات والولاءات الطبقية.

لقد تنازع الكثيرون من واضعي الأخلاق الليبراليين حول فكرة أنه إذا ما كانت الوسائل مبررة فقط بِنفعها في تحقيق الغايات، فإن أشد أنواع التطبيق شراسة مسموح به والأبواب مفتوحة أمام المخازي والشرور البروليتارية للستالينية. وقد أوضح تروتسكي وجهة نظره بقوله أن جميع الوسائل ليست مناسبة في الصراع الطبقي، باستثناء تلك التي تؤدي حقا إلى تحرير الجنس البشري.

(إننا نجيب بأن الوسائل المباحة والضرورية هي فقط تلك الوسائل التي توحد البروليتارية الثورية وتملأ قلوبها بروح اللاهواة ضد الظلم والقهر، وتعلمها احتقار الأخلاق الرسمية وأصدائها الديمقراطية، وتشبعها بضمير رسالتها التاريخية وترفع من شجاعتها وروح تضحياتها في النضال).

إن ادعاء الليبراليين البرغماتيين بأن أخلاقهم متفوقة على أخلاق الماركسيين في النظرية والتطبيق لا يثبت أمام الدحض. فأخلاقهم تفتقر إلى أساس علمي يعتد به، لأنها تتجاهل أهم عامل أساسي في تشكيل العلاقات الاجتماعية وتحريك السلوك الفردي في الحياة الحديثة: أي انقسام وصراع الطبقات. ووصاياهم الخلقية تصبح عديمة التأثير بفعل أخلاقهم في الاعتراف بواقعهم الاجتماعي، وهذا لا يعرقل سيرهم نحو دعم المثل العليا الحميدة للمساواة والتعاون والسلام الذي يطمحون إليه. فعماهم عن حقائق الحياة يساعد على تقوية الرجعية لتشتيتهم وبكبحهم قوى الصراع الأساسية

ضد شرور النظام القائم ومنعه من الاتجاه إلى الطريق الصحيح.

وهذا واضح في هذه الأيام عندما نجد الليبراليين ودعاة السلام يدينون (دون تحيز) إرهاب العرقيين البيض ويرفضون خطوات الدفاع عن النفس التي يلجأ إليها الزنوج ضد مثل هذه الهجمات. وهذا مماثل للمركزي الأخلاقي السياسي الذي يضع العنف العدواني، الذي تسلكه واشنطن على أساس أنه يعادل الحركات الثورية التي يقوم بها الشعب الكونغولي والدومينكاني والفيتنامي في نضاله المناهض للامبريالية، ولتحقيق الحرية والوحدة والاستقلال والتقدم الاجتماعي. إن مثل هذه الأحكام الزائفة تأتي من تطبيق مثل هذه الشرائع الأخلاقية المجردة على الأوضاع التاريخية الحقيقية، بدلا من تحليل المصالح الطبقيّة المعينة والأهداف السياسية للأطراف المتنازعة.

إن الأخلاقية الثورية للاشتراكية العلمية فعالة وتقدمية لأنها تسلح الجماهير العاملة بذلك النوع من المطامح والقيم التي تحتاجها للتحرك، وهي تعمم وتبرهن نظريا عن مشاعرهم بأن الهدف الذي يتوقون لتحقيقه هدف عادل، كما تفسر أهداف جهودهم وتوضح ذلك النوع من الوسيلة اللازمة لتحقيقها. وكما قال المشرع الأخلاقي القديم بكلمات بسيطة (فإننا سنكتشف الحقيقة وستجعلنا الحقيقة طلقاء).

26 تموز/يوليو 1965

هوامش الفصل الاول :

(1) يراجع الفصل الثاني للتعريف بتروتسكي.

(2) ليس المقصود بالأخلاقية هنا المعنى المبتذل الذي يستعمله العامة، بل أن المعنى هنا يختلف بعض الشيء. وسوف يرى القارئ في الصفحات المقبلة كثرة استعمال تروتسكي لهذا المصطلح. (المترجم)

(3) الثيرميدور: أحد المشتركين في إسقاط روبسبير في الثورة الفرنسية. (المترجم).

(4) غيبو G.P.U: البوليس الروسي. (المترجم).

(5) المهل Lava: أي السائل الناري الذي يندفع مع البراكين. (المترجم).

(6) كرونشتاد: قاعدة بحرية للاتحاد السوفياتي، بناها بطرس الكبير، تقع في جزيرة من خليج فنلندا، على مصب نهر اليفا. (المترجم).

(7) ماخنو: عاصمة داغستان عدد سكانها 140000 نسمة، تقع على بحر قزوين وفيها صناعة كيميائية.

(8) الكفير Kaffirs: إحدى قبائل الكفرة الذين ينزلون جنوبي افريقية وخاصة الزولو. (المترجم).

هوامش الفصل الثاني :

(1) ليون تروتسكي (1879-1940) هو الاسم المستعار لـ ليف دافيدوفيتش برونشتاين، ولد في أوكرانيا عام 1879 واغتيل في المكسيك مضروبا ببلطة في رأسه. كما حوكم غيابيا في محاكمات موسكو السيئة السمعة عام 1936 بتهمة التآمر ضد النظام الاشتراكي السوفييتي الستاليني وحكم عليه بالإعدام غيابيا.

كان تروتسكي يعتبر الرجل الثاني بعد لينين، بل كان البعض يعتبره الرجل الأول في الثورة الروسية، حتى أن إحدى الصحف الأمريكية نشرت نبأ الثورة في 8 تشرين الثاني/نوفمبر على صفحتها الأولى بعناوين تقول أن تروتسكي هو قائد تلك الثورة، وأن لينين ليس سوى واجهة ظاهرية.

ويمكننا القول أن تروتسكي وقف في أوقات كثيرة موقف المعارضة من الماركسية ومن لينين وأخيرا من حكم ستالين، حتى أصبح رمزا للمعارضة في صفوف الحركة الثورية الاشتراكية الروسية، وتلتزم جميع الأحزاب الشيوعية بإدانتها وإدانة أفكاره مواقفه. كما تعتبر التروتسكية في نظر الشيوعيين جريمة وخيانة.

وترجع جميع الخلافات بين تروتسكي ولينين وستالين في جذورها إلى نظرية تروتسكي (الثورة الدائمة) وهي النظرية التي وضع خطوطها العامة في عام 1905، ثم أخذ يطورها ويتوسع فيها حتى عام 1931، وظل يمتحن تطبيقها على تفسير أحداث الثورة الصينية، والثورة الإسبانية، وثورات المستعمرات، ومسار الثورة الاشتراكية السوفيتية نفسها حتى يوم مماته. وقد كون تروتسكي الأهمية الرابعة بعد حل الدولية الثالثة، ولكن ما لبث أن اختلف مع الكثيرين من أعضاء هذه الدولية. وكما لاحظ القارئ فغن تروتسكي يكتب بقلم من سيف. (المترجم)

(2) الهوتنتوت Hottentot من سكان جنوب وجنوب غرب افريقيا الذين انقرضوا تقريبا على يدي الهولنديين. (المترجم)

(3) لن يعالج هنا تلك العادة القميئة، عادة الإشارة إلى الهوتنتوتيين بازدراء من أجل الإشادة بأخلاق تجار العبيد من البيض. لقد عالجتنا هذه المسألة في هذا الكراس بالشكل الكافي.

(4) الشيكا Cheka جهاز البوليس السري في الاتحاد السوفيتي، أنشئ عام 1918 ثم استبدل بالغيبو. (المترجم).

(5) فيكتور باش هو رئيس عصبة حقوق الإنسان في فرنسا، وهي منظمة للبرجوازيين، والبرجوازيين الصغار. وروزنمارك أحد أعضائها، محام استخدمه الستالينيون لتبرئة محاكمات موسكو التي حدث أن حضرها مثله في ذلك مثل الانكليزي (بريت).

هوامش الفصل 3:

(1) حتى نتعرف بشكل دقيق على أفكار ديوي لناخذ فكرته الأساسية في ميدان أكثر تحديدا هو ميدان الأخلاق بجانبه النظري والعملي. فموضوع الأخلاق هو سلوك الناس، وغرضها هو أن نضع على نحو عام الفارق بين السلوك الحميد والسلوك السيء، ويترتب على ذلك في نظر ديوي أن المهمة الأولى للأخلاق هي أن نتفهم طبيعة هذه الكائنات العضوية البيولوجية التي يتألف من مجموع سلوكها السياق الاجتماعي، والمهمة الثانية للأخلاق هي أن نتفهم أنواع المواقف المشككة التي تدفعنا إلى أن نحاول التفرقة بين السلوك الحميد والسلوك السيء، ومتى قمنا بهاتين وليس قبل ذلك نكون في وضع يتيح لنا أن نضع الفارق بين (الخير والشر)، للمزيد من الاطلاع يراجع:

J.Dewey: The Theory of Enquiry. Allenand Unwin, London and New York, 1939

(2) أخلاقهم وأخلاقنا، بقلم ليون تروتسكي. النيوناشيونال، حزيران/يونيو 1938 صفحة 163-173. (المترجم)

هوامش الفصل 4:

(1) هذه الحقيقة تأكدت قبل وقت قصير لدى بعض الكهنة العمال في فرنسا، الذين أرسلتهم الكنيسة لتغلغل بين صفوف العمال ومجابهة هرطقة الماركسية والملحدة. فقد كتبوا في رسالة موجهة للكردينال فيلتن Feltn بتاريخ الخامس من تشرين الأول/أكتوبر 1953 قائلين: (لقد علمنا أن الصراع الطبقي مجرد مبدأ يمكن للفرد القبول به أو رفضه، وإنما هو حقيقة شرسة فرضت على الطبقة العاملة). ونظرا لرفضهم التراجع، طردوا من سلك الكهنوت.

ثبت بالمصطلحات الرئيسية المستعملة في الكتاب

Amoral	لأخلاقية
Absolutism	اطلاقية
Absurdity	عبث
Bestial Morality	أخلاقية حيوانية
The Conception	الفكرة
The Carriers of infection	حاملو الوباء
Common Sense	الحس المشترك
Cement of Morality	اسمنت الأخلاق
Ends	الغايات
Chauvinism	الشوفينية
Interdependent	مترابطة
Interdependence	تواقف
Instrumentalist Philosophy	الفلسفة الوسيطة
Jesuitism	اليسوعية
Moralizing	الخلقة
Moral Precepts	القواعد الخلقية
Means	الوسائل
Moral Sense	الحس الخلقى
Moral Effluvia	الأخلاق الطوباوية

Pharisees	الفريسيين
Sycophant	منافق
Subjective	الذاتي
Swindlers	دجاجلة: جمع دجال
Social Development	التطور الاجتماعي
Synthesis	طباق
The Moral Gangrene	الغنغرينا الأخلاقية
Scientific Knowledge	معرفة علمية
Secular	علمانية
Revolutionists	ثوريون
Rational	عقلانية
Orthodox Religionism	الدينية الأرثوذكسية
Traditional Idealism	المثالية التقليدية
Utilitarianism	النفعية
Universal Common Sense	الحس الكوني المشترك

